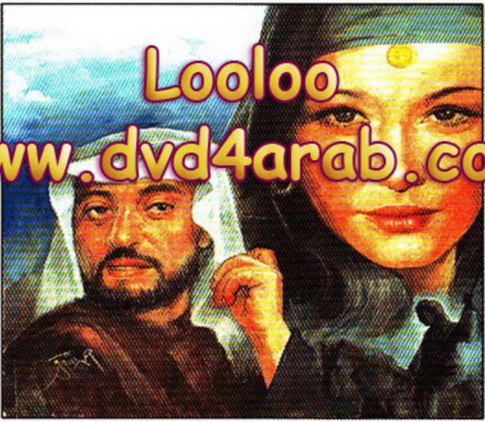
روايات الهلال للأولاد والبنات

سلسلة تاريخ الإسلام

جرجي زيدان



فتاة غسان

الجزء الثاني

قبل أن تقرأ..

«جرجى زيدان» مفكر لبنانى المولد مصرى الإقامة عروبى الهوى.. إسلامى الثقافة.. عاش ثلاثة وخمسين عاماً فقط (١٨٦١ - ١٩١٤) ، قدم خلالها للفكر العربى أكثر من خمسين كتابا فى مجالات الفكر كافة.. يأتى فى مقدمتها «روايات تاريخ الإسلام» (٢٣ رواية) ، والتى استطاع من خلالها أن يقدم التاريخ الإسلامى بسهولة ويسر، كما اتسمت رؤيته بالإنصاف والعدل ، وهو الكاتب المسيحى المستنير الذى استطاع أن يضع يده على عناصر التسامح والعقلانية فى تاريخ الإسلام، وحوّل هذا التاريخ من مادة صماء إلى حكايات ووقائع وشخصيات شديدة الحيوية، مما جعل هذه الروايات تحقق نجاحات كبيرة وإقبالاً شديداً بين مختلف فئات المجتمع داخل مصر وخارجها عند نشرها مسلسلة على صفحات مجلة «الهلال» بداية من السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر.. ولكل ذلك فنحن نعيد تقديم هذه الروايات للأجيال الجديدة «بشكل جديد» لما لها من أهمية فكرية وتاريخية، ولما تحمله بين طياتها من إجابات على كثير من علامات الاستفهام التى تشغلنا فى الوقت الحالى...

رئيس التحرير

المقدمة

هذا هو الجزء الثانى من رواية «جرجى زيدان» «فتاة غسان»، حيث يواصل «جرجى زيدان» رائعته الأولى فى تتبع مسيرة الإسلام من الجزيرة العربية إلى العالم الفسيح، إلى بلاد الشام والعراق، حيث الاحتكاك المباشر بل الصدام مع القوتين العظميين فى العالم حينذاك الفرس والروم .

وتتجلى موضوعية جرجى زيدان وإخلاصه للحقيقة العلمية والتاريخية حين عرض فى الجزء الأول صورة دير الراهب بحيراء فى الشام ذلك الذى كان مستراحا للقوافل من جهات متعددة، وأن هذا الراهب المسيحى هو أول من عرف محمدا صلى الله عليه وسلم وعمه أبا طالب وأكرمهما وأكرم القافلة التى كانا فيها، وأنبأ أبا طالب بمستقبل ابن أخيه .

يعرض جرجى زيدان هنا فى هذا الجزء الثانى من الرواية للذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا عملاء تابعين للفرس والروم، فالمناذرة كان مركزهم فى الحيرة بالعراق تابعين للفرس، والغساسنة كان مركزهم ببلاط الشام تابعين للروم وكانت المنافسة والخلاف بينهما لصالح القوتين العظميين على أرض العرب فى الشام والعراق على السواء مما أدى إلى اختلال النظام وانحلال القوة، مما مكن للعرب الأوائل الانتصار على القوى العظمى .

وكأن جرجى زيدان يريد أن ينبه إلى أن العرب يملكون روحا تستطيع أن تهزم القوى العظمى، حين يركز على موقعة «ذى قار» ، بين القبائل العربية والفرس، حين استطاعت هذه القبائل أن تلحق الهزيمة المنكرة بالفرس فى هذه الموقعة ، مع عظم مملكة الفرس وتنظيم جيوشها .

ويشرح جرجى زيدان ، بطريقته الروائية المبدعة، كيف تسرب الانحلال إلى مملكة الفرس الباذخة بعاصمتها «المدائن» المنيعة، و«إيوان كسرى» فيها الذى كان يمثل عظمة العرش الفارسى، ويصف جرجى زيدان العاصمة والإيوان وصفا كأنه يقول من خلاله إن العبرة فى التاريخ ليست بقوة المدائن ولا عظمة العروش من غير قوة الإنسان. ولذلك يسلط الضوء على

انتشار حركة التنسك المسيحى التى كانت تعد رفضا لمظاهر الترف الفارغة والعظمة الجوفاء، مما يبين أن الظروف كانت مواتية لظهور الإسلام .

من ثم ينقل جرجى زيدان الصورة إلى الناحية العربية، التى كانت فيها الأمور مختلفة تماما، إذ فتحت مكة وبدأت القوى العظمى تتحرش بالدولة الإسلامية الجديدة، رغم أنها أخذت درسا من موقعة مؤتة، وخبرت الروم قوة المسلمين واتحادهم .

ورغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم توفى بعد ذلك إلا أن حركة انتقال الخلافة إلى أبى بكر لم تؤثر فى مسيرة الدعوة أو الدولة رغم انشغال المسلمين بحروب الردة وإخضاع القبائل التى انشقت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقضاء على المتنبئين الكذبة .

ويسلط جرجى زيدان بعد ذلك الضوء على موقعتين عظيمتين؛ هما موقعة «اليرموك» مع الدولة الرومانية فى الشام، وموقعة «المدائن» مع الدولة الفارسية رغم تغير الخلافة بعد موت أبى بكر وتولية عمر بن الخطاب.

كما يعرض جرجى زيدان المشهد المهيب لفتح المسلمين بيت المقدس، وإصرار «بطريرك المدينة» على أن يسلم مفاتيحها لعمر ابن الخطاب نفسه، مما جعل عمر (رضى الله عنه) يأتى من العاصمة «المدينة»، إلى بيت المقدس .

وهنا يركز جرجى زيدان على بساطة عمر، وزهده مع حشمته وجلالة قدره، فهو لاينزل فى قصر من قصور المدينة بل ينزل فى خيمة من شعر نصبت له هناك، ونزل الأمراء معه وقد جلس على التراب وجلس الجميع . وهنا يستنطق «جرجى زيدان» بطل روايته بالمقارنة بما انغمس فيه الروم من الترف ، وما أراد الله من خضوعهم لأولئك العرب .

فى خضم الرواية عن المعارك الكبرى فى تاريخ الإسلام، فى القادسية والمدائن ودمشق وبيت المقدس تلك المعارك التى أنهت تماما دولتى الفرس والرومان ، وكتبت تاريخا جديدا لهذه المنطقة والعالم بأسره . لاينسى «جرجى زيدان» أن يقف وقفة تحت عنوان «جبلة بن الأيهم» ، ملك الغساسنة الذى وفد إلى عمر بن الخطاب فى المدينة بعد فتح المسلمين بيت المقدس،

وعرض الإسلام، فقبله عمر وأذن له أن يبقى على ما اعتاده من فاخر اللباس، من الحرير والديباج وركوب الخيل مسرجة بالسروج الثمينة عليها سلاسل الذهب فى أعناقها ، وإذا ركب وركبت حاشيته عقدوا أذناب الخيل ، فسارت تخطر بهم حتي لاتبقي واحدة من نساء المدينة إلا وتخرج لمشاهدتهم . وينقل جرجى زيدان أن جبلة هشم أنف أحد المسلمين من فزارة، لأنه وطىء إزاره، فغضب جبلة وهشم أنف الفزارى فاستدعاه عمر فاعترف، فعرض عليه عمر أن يرضي الفزارى، فعظم الأمر على جبلة، فقال عمر: آمره بتهشيم أنفك، فقال جبلة : كيف ذلك يا أمير المؤمنين ، وهو سوقة ، وأنا ملك ؟! فقال عمر: إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشىء إلا التقوى. فقال جبلة : ظننت أنى أكون فى الإسلام أمنع منى فى الجاهلية. فقال عمر : دع عنك هذا إن لم ترض الرجل جعلته يقتص منك، ففر جبلة من المدينة .

وينقل «جرجى زيدان» رواية عن عمر يتحدث عن جبلة : «ما برحنا نرى فيه روح الاستبداد والظلم مما يأنفه عدل الإسلام ، لأن هؤلاء المتنصرة (الغساسنة والمناذرة) عاشروا الروم، واعتنقوا ديانتهم، وتخلقوا بأخلاقهم . ولايخفى عليكم ما فى هؤلاء الروم من التفاوت بين طبقات رعاياهم فيأكل القوى منهم الضعيف بغير وجه حق ، فأراد «جبلة» أن يسير علي ذلك فأوقفناه عند حده» .

وجرجى زيدان بهذا المشهد وكثير من مشاهد روايته، يدل على قصده إلقاء الضوء، لا على حروب الإسلام، وقوة أتباعه مع القوى العالمية فقط ، بل علي وجوه الإسلام العديدة، ومحاسنه الأخلاقية، والحضارية ، ومساواته المبكرة بين الأجناس من البشر ، وانعدام الطبقية أو التمييز بين بنى الإنسان.

ولعل هذه المشاهد المنصفة ، لا تترك أثرا لأى شك فى موضوعية الكاتب ، وشرف نزاهته ومقصده فى عرض الإسلام.

د. عبدالمعطى بيومى

المناجاة

تركنا حمادا وسلمان – فى آخر الجزء الأول من هذه الرواية – وقد غلب عليهما اليأس فى مكة، بعد أن تكبدا مشاق الأسفار ولم يظفرا بشىء مما كانا يأملان فيه ، وخصوصا «حمادا» فإنه أصبح يائسا تتقاذفه عوامل الحب من جهة وعوامل الشهامة من جهة أخرى، لايرجو لقاء والده ولا يأمل فى الظفر بحبيبته ، فحدثته نفسه أن يبتعد عن الناس ، ويأوى إلى مكان لايعرفه فيه أحد ، أو أن يقيم فى دير .

أما «سلمان» فإنه أدرك حال سيده ، فثارت فى نفسه عاطفة الشهامة ، وصمم على أن يبذل نفسه فى سبيل تعزيته ، فخرج من الخان ذات صباح متظاهرا بحاجة يفتش عنها ، وترك حمادا وحده ، فلما خلا حماد بنفسه خرج من الغرفة وصعد إلى سطح الخان وقد ضاق صدره ، فجلس على وسادة وأخذ ينظر إلى مكة وما يحيط بها ، متذكراً حبيبته ووالده، وتصور مقدار ما تراكم عليه من الهموم ، وقد قطع البرارى والقفار حتى جاء للبحث عن «قرطى مارية» مهرا لخطيبته «هند» ومرضاة لوالديها ، فعلم من «حرب الخزاعى» أن القرطين لايمكن العثور عليهما هناك .. وبعد أن كان يأمل فى لقاء والده مع أبي سفيان فى مكة تحقق من عدم وجوده، فيئس من حياته ، وعظم الأمر عليه كثيرا .

حسان بن ثابت الأنصارى

مضى جانب من ذلك النهار و«حماد» لم يذق طعاما .. حتى إذا كان العصر أفاق على صوت «سلمان» خادمه ، فرآه وعلى وجهه أمارات البشر ، كأنه عرف أمرا جديدا ، فانبسطت نفس «حماد» ، وجلس وهو يقول : « ما وراءك يا سلمان؟» .

قال سلمان : « ما ورائى إلا الخير، فقد خرجت فى هذا الصباح ، وسرت فى أسواق مكة . فمررت بأحد البيوت ، فرأيت عند بابه بغلة عليها برذعة ثمينة وإلى جانبها غلام ، فحدثتنى نفسى أن أسأله عن صاحب البغلة ، فقال : « هو حسان بن ثابت شاعر الأنصار» فتذكرت

أنى أعرف هذا الاسم ، فأخذت فى التفكير ، فعلمت أنى كنت أسمع اسمه منذ كنت فى العراق ، وأنه كثيرا ما كان ينظم القصائد فى مدح الملك «النعمان» وكان كثيرا ما يفد على ملوك بنى غسان فيمتدح جبلة والحارث بن أبى شمر وغيرهما ، فقلت فى نفسى : «أظننى اهتديت إلى ضالتى .. إن الرجل يجالس أعظم ملوك العرب ، فربما كان له إلمام بأمر القرطين» . فسألت عنه الغلام ، فقال : « إنه فى البيت» ، فاستأذنت فى الدخول عليه ، فإذا هو جالس على وسادة فى جانب من الغرفة ، فتأملته، فإذا به قد تبدلت حاله عما كنت أعرفه، فقد حناه الكبر وضعف بصره وشاب شعره فبادرت إلى يده أقبلها ، فرد التحية ورحب بى، وأجلسنى إلى جانبه، وسألنى عن أمرى ، فمازلت أدخل معه فى حديث وأخرج من آخر حتى توصلت إلى القرطين ، فسألته عما يعرفه من أمرهما ، ففكر قليلا ثم قال : «أظننى سمعت ذكرهما فى بعض مجالس النعمان بن المنذر فى الحيرة» ، فقلت : «وكيف كان ذلك ؟» ، قال : « يغلب على ظنى أن أحد تجار الفرس الذين يحملون الثياب الفارسية إلى مكة عاد منها ذات عام ومعه «قرطا مارية» ، فعرضهما على النعمان، وأظنه اشتراهما منه ، وإذا صدق ظنى، فإن القرطين الآن فى خزانة الملك النعمان فى الحيرة» .

قال حماد : « إنى أرى فى كلام الشاعر بابا للفرج ، هلم بنا نسير إليه» !!

قال ذلك ونهض وقد عادت إليه بعض الآمال . وخرج مع «سلمان» ماشيين حتى أتيا بيت «حسان بن ثابت» فاستأذنا فدخلا ، فتقدم أولا «سلمان» ، وذكر اسم «حماد» أمام «حسان» وقال إنه سيده، وإنه من أمراء العراق، ثم تقدم حماد وأراد تقبيل يدى الشيخ ، فمنعه، ورفع نظره إليه وتفرس فيه ، كأنه يراجع فى ذاكرته صور أمراء الحيرة ، لعله يعرف «حمادا» فتشابه عليه الأمر ، فسأله عن اسمه واسم عائلته ..

فقال حماد : « إني حماد بن الأمير عبدالله» .

فقال حسان : « لا أذكر رجلا بهذا الاسم في بلاط قصر النعمان ، فقد قتل «النعمان» رحمه الله ، قتلوه غدرا ، وتفرق أصدقاؤه . على أننى انقطعت عن «الحيرة» قبل ذلك العهد ، فلم أعد أتردد عليها » .

فقال حماد : «وهل كنت تتردد عليها كثيرا ؟» ..

قال : « لم يكن يمضى العام قبل أن أزورها مرارا ، فأركب ناقتى من المدينة حتى آتى البلقاء ، فأدخل على جبلة بن الأيهم أو الحارث بن أبى شمر الغسانيين ، ثم أقصد العراق فأدخل مجلس النعمان بن المنذر ، فيأمر لى بالعطايا ، ثم كان ما كان من أمر قتله ، فانقطعت عن العراق إلى البلقاء ، حتى ظهر الإسلام وأسلم أهل المدينة ، فكنت ممن تشرف بالإسلام ، ولازمت رسول الله صلي الله عليه وسلم» ...

فقال سلمان : «ذكرت يا مولاى أن «قرطى مارية» بيعا للملك النعمان ، فماذا تم فيهما بعد موته ؟» قال حسان : « لا أدرى ، ربما كانا فى جملة ما استولى عليه قاتلوه من التحف فإذا صح هذا الظن كان القرطان فى خزانة ملوك الحيرة الآن » .

وكان «حسان» يخاطب «سلمان» وعيناه لم تتحولا عن وجه «حماد» وهو يتفرس فيه ويلاحظ حركاته ، كأنه يعرف له شبها ، وبعد ما سمعه حماد من أمر القرطين وصعوبة الحصول عليهما بعد وصولهما إلى خزانة ملوك الحيرة ، صمم على البحث عنهما ما استطاع .

وبعد قليل أراد «حماد» الخروج ، فسأله «حسان» : « إلى أين ؟» .

قال سلمان : « إننا نقصد منزلنا لنتهيأ للسفر فى الغد» .

قال حسان : « هل تريدون الذهاب إلى المدينة ؟» .

قال سلمان : «ربما مررنا بها فى طريقنا إلى البلقاء» .

قال حسان : « أرى أنكما غريبان ، فربما عسر عليكما المسير منفردين ، وقد آنست فيكما عنصرا طيبا ، فهل تقبلان مرافقتى إلى المدينة تقيمان فيها ريثما تعزمان على السفر إلى البلقاء، وربما أرشدتكما لمن يوصلكما إليها» .

فنهض «سلمان» ، وأثنى على «حسان» ثناء طيبا ، وقال : «إننا نشكر لفضلك شكرا جزيلا ، ولا نعد ذلك منك إلا كرما».

قال : « عفوا ، ولا أنكر فضل العراق عليّ وعلى كل من نزل ديارهم من الغرباء ».

اللقـــاء

فباتا تلك الليلة فى منزل «حسان» ، وأصبحوا جميعا قاصدين المدينة ، و«حسان» يتلو عليهم فى أثناء الطريق لطائف منظوماته فى مدح ملوك الحيرة وملوك غسان . ثم تذكر حماد «ثعلبة» وأباه «الحارث بن أبى شمر» فقال : «وكيف رأيت الحارث بن أبى شمر ؟».

قال : « رأيته كريما محبا للشعراء ، ولكنه كان حاسدا لجبلة ، فكنت إذا مدحت «جبلة» فى حضرته ظهر الحســد على وجهـه».

فتحقق «حماد» أن «ثعلبة» إنما ورث ذلك الخلق عن والده ، وزاد عليه اللؤم والخسة.

فقال «سلمان» : « وكيف رأيت جبلة ؟» ..

قال : « رأيته شهما عزيز النفس كريم الخلق » .

فقال سلمان : « وأى الملكين أشد بطشا الآن ؟» .

قال : «إن جبلة أرفع مقاما وأعز جانبا ، ولكن بعض القادمين علينا من البلقاء أخبرنا بوفاة الحارث بن أبى شمر» .

ففوجىء «سلمان» و«حماد» ، وقال سلمان : «وهل تحققتم من وفاته ؟» .

قال : «نعم ، وقد نقل إلينا الخبر بعض الذين أرسلناهم للتجسس على أحوال الروم» .

فالتفت «سلمان» إلى «حماد» فرآه يبتسم ، ثم سأله سلمان : «ومن تظن سوف يرث الإمارة بعده؟» .

قال : «لا أظن أحدا من أهله جديرا بهذه الإمارة ، والغالب أن تجتمع كلمة قبائل غسان تحت لواء جبلة بن الأيهم» .

انشرح صدر «حماد» بذلك، لكن أمر القرطين ظل يراوده .

ومضوا في سيرهم حتي بلغوا المدينة صباحا .. فوجدوا أهلها في فرح وسرور لما تحقق لهم من النصر بفتح مكة ، ورأوا الناس عكوفا علي الصلاة . وقد أعجب «سلمان» و «حماد» بما آنساه من عكوف المسلمين علي الصلاة ، وما رأوا من خشوعهم وتدينهم ، فضلا عما شاهدوه من بسالتهم في فتحهم مكة .

أما «حسان» فلم يكد يصل إلى منزله حتى طلب الراحة من عناء السفر لشيخوخته ، فدعا ضيفيه إليه ، فجلسا ، ثم قال لهما : «تذكرت أمرا أظنه يهمكما كثيرا ، وقد فاتني ذكره لكما قبل الآن» .

قال «سلمان» : «وماذا عسى أن يكون ذلك ؟» .

فقال حسان : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل جندا من المسلمين لحرب الغسانيين فى العام الماضى .. فسار الجند وحاربوهم فى مكان يقال له «مؤتة» بالقرب من «بصرى» .

وفى أثناء تلك الحملة أسر الجند رجلاً ، وحملوه الينا فلما رأيته معهم عرفت أنه أسر ظلما ، ولما سألته عن خبره علمت أنه عراقى من أهل الحيرة، ذكر أنه كان يرانى أثناء ترددى على الملك النعمان منذ عشرين عاما . وبما أنكم من أهل العراق فربما استأنستم بالرجل ، .. قال ذلك ونادى رجلا واقفا بالباب فحضر ، فقال له : « ادع ضيفنا العراقى» .

فخرج ، ثم عاد يتبعه رجل كهل يلتف بعباءة ، فحالما وقع نظر «سلمان» على ذلك الرجل أحس بخفقان قلبه ، كأنه آنس فيه مشابهة لسيده «عبدالله» ، ولكنه رأى ملامحه تخالف ملامح عبدالله ، أهمها أن عبدالله كان طويل الشارب ، مسترسل شعر اللحية ، أما هذا فهو قصير الشارب واللحية .. على أن «سلمان» ظل ينظر إليه ويتأمله حتى دنا منه فوقف له وهم بمصافحته ، فلم يكد يفوه بأول كلمة حتى تحقق «سلمان» أنه هو سيده بعينه ، فهم به وقبله وناداه باسمه .

وكان «حماد» فى شاغل فى «هند» والقرطين ووالده ، فلم ينتبه إلا و«سلمان» ينادى بأعلى صوته : « مولاى الأمير ، أهلا مولاى

الأمير» ، فالتفت «حماد» ، فإذا هو والده «عبدالله» فنهض مبغوتاً وقد همّ به عبدالله يعانقه ويقبله ودموع الفرح تتساقط على وجهه ، وسلمان يقبل يد عبدالله ، فانبسطت وجوه الجميع وزال منها الانقباض ، وجلسوا وعبدالله بجانب حماد قابضا على يده بين يديه .

فقال «سلمان» : « لقد رأيت فى وجه مولاى تغيرا كاد يحول بينى وبين معرفته ، فانى أعهد شعر وجهه طويلا مسترسلا فما لى أراه قصيرا؟» .

فضحك «عبدالله» وقال : « إن لهذا التغيير حديثا غريبا سأقصة عليك بعد إن أسمع حديثكما منذ افترقنا» .

وقعة «مؤتة»

فقص «سلمان» حكايته ، وما تم بعد ذلك من حديث «هند» ووالدها وحب حماد لها ، ثم ما كان من خطبة حماد وما اقترحه عليه جبلة مهرا لابنته ، وما لاقاه «حماد» فى سبيل ذلك من الأسفار والأخطار ، حتى جاءوا مكة وشهدوا فتحها ، وكيف يئسوا من وجود القرطين هناك ، حتى تجدد لهم الأمل فى وجودهما فى خزانة النعمان بن المنذر فى الحيرة .

وكان «عبدالله» فى أثناء الحديث مصغيا صامتا ، وأمارات الاستغراب ظاهرة على وجهه ، كأنه سمع أمورا لم يكن يتوقع حدوثها ولا يرضاها ، ولكنه سكت عن ذلك وأخذ يقص عليهم قصته ، فبدأ بوقوعه في الأسر ثم مسيره إلى بيت المقدس ، ومقابلته هرقل امبراطور الروم ، وما سمعه من حديث أبى سفيان ، ثم سفره معه ، وما كان من مشاهدته فرس حماد واستدلاله منه على ضياع «حماد» وما شاهدوه من عظام الفرس الآخر ، حتى انتهى إلى مسيره منفردا إلى عمان ، ووقوعه أسيرا بين يدى الحجازيين الذين ساروا لمحاربة أهل الشام ، وما دار بينه وبين بعضهم عن السبب الذى جاءت تلك الحملة من أجله .

إلى أن قال : « فلبثت أسيرا عندهم .. وأنا على مثل الجمر ، لأن أملي لا ينقطع فى لقاء ولدى «حماد» ، فكان سجنى فى معسكر الحجاز

ثقيلا علىَّ ، فبعد أن قضيت مدة بجوار عمان علمت ذات يوم أن الروم قد جندوا جندا كبيرا يبلغ عدده نحو مائتى ألف، فلما بلغ المسلمين ذلك النبأ خافوا من الفشل لأن عددهم لايزيد على ثلاثة آلاف ، فضلا عما يمتلكه الروم من العدة والسلاح . وبلغنى أن جند المسلمين اجتمعوا فى خيمة «ابن رواحة» ، وهو أحد أمرائهم، وتشاوروا فى الأمر ، فقال أكثرهم : نكتب إلي رسول الله فى المدينة نستشيره .. فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضى له .. فقام فيهم «ابن رواحة» وألقى خطابا أنهض هممهم قال : «يا قوم والله إن التى تكرهون لهى التى خرجتم لها تلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولاكثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، إما ظهور وإما شهادة» .

فقال الناس : « والله صدق ابن رواحة» واشتدت عزائمهم وصمموا علي الحرب ، وكنت أعجب لبسالتهم وإقدامهم واتحاد كلمتهم واستماتتهم في سبيل نصره دينهم .

وبعد أيام نودى بالجند فقاموا ، وسرت أنا فيهم مخفورا أرى كل حركاتهم وسكناتهم ، فمازلنا سائرين حتى دنونا من بلدة علي مقربة من بيت المقدس يقال لها «مؤتة» ، وكان جند الروم قد عسكروا هناك، فالتفتُّ إلى ذلك الجند فإذا فيهم الفرسان والمشاة ، ورأيت في وسط المشاة جمعا عليهم ملابس كثيرة الألوان تبهر النظر ، فكنت أظن أن الحجازيين لاينظرون إلى ذلك الجند حتى يعودوا القهقرى مهابة .. ولكن رأيت فيهم ثباتا لم أر مثله ، وما ذلك إلا لإيمانهم بربهم وعدم مبالاتهم بأنفسهم فى سبيل نصرة دينهم .

وخلاصة القول إن المسلمين تقدموا بقيادة ثلاثة من الأمراء ساروا أمامهم مشاة على أقدامهم حتى التقى الجيشان ونشبت الحرب .. وكان اللواء أولا يقوده «زيد بن حارثة » فقاتل وهو يعلم ضعف الجند ، ولكنه ظل مكافحا حتى قتل طعنا بالرماح ، فتقدم الأمير الثانى وهو «جعفر بن أبى طالب» فقاتل وهو على فرس شقراء فأحاط به جند

الروم ونزل عن فرسه وقاتل حتى قتل ، فأخذ اللواء «عبدالله بن رواحة» وهو على فرسه ثم نزل عن فرسه وحارب حتى قتل ، فوقع الرعب فى قلوب المسلمين وكادوا يفشلون لو لم يقم فيهم رجل باسل لم أر مثله ، اسمه «خالد بن الوليد» ، وسمعت بعضهم يسميه «سيف الله» ، فجمع كلمة الجند وهجم هجمة واحدة ، فظن الروم أن نجدة قد جاءتهم ، فاستولى الخوف على جند الروم وفشلوا ، وغنم المسلمون منهم شيئا كثيرا ولكنهم لم يستمروا على الحرب ، فعاد المسلمون إلى المدينة ، فلما عاد المسلمون إلى هنا عدت أنا معهم أسيرا ، فلما وصلت إلى المدينة التقيت بشاعرنا (وأشار إلى حسان) فتعارفنا ودعانى للإقامة فى داره ، فأقمت عنده كما ترون» .

يوم الشعانين

فلما أتم «عبدالله» حديثه هنأ بعضهم بعضا بالسلامة ، ثم قال «حماد» : «وأين فرسى الآن ؟» .

قال : « هو معى هنا ، فهل تريد أن تراه ؟» .

قال : « نعم» ، فخرجوا إلى بستان بالقرب من المنزل ، وكان الجواد مشدودا إلى نخلة ، فلما وقع نظره على صاحبه أخذ فى الصهيل كأنه يرحب بقدومه ، وتقدم «حماد» إليه فلمس جبهته وقبله بين عينيه ، ثم عادوا جميعا والفرح ملء قلوبهم ، إلا «حمادا» فإنه عاد إلى التفكير فى «هند» وأبيها والقرطين ، فلما وصلوا إلى المنزل وجلسوا ، نظر عبدالله إلى حماد، وقال له : «ألعلك لاتزال مصمما على الزواج بهند ؟» .

قال حماد : « نعم يا أبتاه ، ولا أظنني قادرا على العدول عنه بعد أن كان ما كان» .

قال عبدالله : «وهل نسيت نذرنا لدير بحيراء ؟» .

قال حماد : « وأى نذر؟» .

قال عبدالله : « نذر يوم الشعانين الذى سنقص فيه شعرك» .

قال حماد : «وما شأنه بمسألة الزواج ؟» .

قال عبدالله : « إن له دخلا كبيرا ، لأنى سأخبرك فى ذلك اليوم حكاية ، وأطلعك على أمور ذات بال لها علاقة كبرى بأمر الزواج» .

فخشى «حماد» أن يكون هناك ما يحول بينه وبين «هند» ، فقال : « وهل فى السر ما يمنعنى من هند ؟» .

قال عبدالله : « لا أستطيع أن أصرح بشىء من ذلك الآن ، ولكن أحد الشعانين يكشف لك كل شىء » .

فقال حماد : « إن يوم الشعانين بعيد ، فهل يسوغ لنا أن نستبدل به يوما قبله ؟» .

قال عبدالله : « كلا يا ولدي ، بل يجب علينا إتمام النذر فى حينه » فوقع «حماد» فى حيرة ، وخشي أن يكون فى قصة يوم الشعانين ما يحول بينه وبين «هند» فود أن يطلع على حقيقة ذلك ليعلم كيف يتصرف ، فخطر له أن يستطلع رأى «سلمان» على حدة ، لعله يكون عالما بشىء من ذلك السر .

فانفرد به فى مساء ذلك اليوم ، وسأله عما يعلمه من أمر يوم الشعانين ..

فقال له سلمان : « إن سر ذلك اليوم مكتوم عن كل بشر أعرفه ، وقد قضيت مع سيدى والدك أعواما منذ كنت طفلا حتى صرت شابا وأنا أسمع أنه نذر قص شعرك فى دير بحيراء عندما تبلغ هذه السن ، وأنه سيطلعك فى ذلك اليوم على أمور تهمك كثيرا ويكون لها علاقة كبرى بمستقبل حياتك ، فما علينا إلا الانتظار إلى يوم الشعانين» .

فقال حماد : «وكيف أقضى هذه الأيام ؟ وماذا أفعل فى شأن «هند» ؟ .. فهل يخفى عليك ما بينى وبينها من المحبة والرابطة ، وقد تركتها على موعد باللقاء ، فمضت سنة منذ تركتها ولم أفعل شيئا مما تعهدت به ، ولم نعثر علي القرطين ، ولا أرى أن أعود إليها إلا والقرطان فى يدى ، وعلمت أن الأمل معقود بالتفتيش عنهما فى العراق ، ولا نستطيع ذلك إلا بمساعدة والدى ، وقد سمعت قوله الذي يدل على رغبته فى وقف كل محاولة حتى يوم الشعانين ..

فكيف أقضى هذه المدة وأنا بعيد عن «هند» ؟ أتظنها لاتزال على العهد ؟» .

قال سلمان : « أما ما عرفته من حبها لك وثباتها فيه، فلا يترك مجالا للشك فى بقائها على عهدك ، ولكننى أرى أن تكتب إليها كتابا أو تبعث إليها رسولا تبثها ما عندك، وتستمهلها فى إتمام المهمة التى أنت سائر بشأنها ، وتطلب منها جوابا ، ومن جوابها تفهم ما تضمره نحوك» .

فقال حماد : « وهل تظن أن والدى يعتزم البقاء هنا حتى يوم الشعانين ؟» .

قال سلمان : لا فالغالب أنه يفضل الذهاب إلى «بصرى» كى يقيم فيها بقية هذا العام» .

قال حماد : « فاذا كنا ذاهبين إلى بصرى فليس ثمة حاجة إلى المراسلة ، لأنى ألاقيها هناك واجتمع بوالديها أو بأحدهما وأحدثهما عما تم .. فما عليك إلا إقناع والدى بالذهاب بنا إلى البلقاء» ..

قال سلمان : « حسنا» .

ثم افترقا ، وأخذ «سلمان» فى ترغيب مولاه «عبدالله» فى الخروج من المدينة والاقامة بقية ذلك العام فى البلقاء .

فوافقه «عبدالله» على ذلك ، فقضوا بضعة أيام فى المدينة يشاهدون ما استحدثه المسلمون فيها من الأبنية ، وأحسنها المسجد الجامع . على أنهم كانوا يشاهدون فى كل يوم شيئا جديدا من المعدات الحربية للغزو أو غيره ، مما زادهم تهيبا لجند المسلمين ، وتوقعوا لمستقبل دولتهم مكانة كبيرة .

وأخذوا في الاستعداد للمسير...

«هند» فى صرح الغدير

أما ما كان من أمر «هند» بعد سفر «حماد» ، وما قاسته أثناء غيابه من الوحشة والخوف عليه ، ولا سيما بعد أن سمعت بفتح مكة ودخول المسلمين إليها ، وهي تعلم أن «حمادا» إنما سار إلي هناك للبحث عن القرطين .

فإن هند كانت قد ودعت حمادا يوم سفره وقلبها يخفق عليه ، لعلمها أنه سار فى تلك المهمة والخطر ظاهر فيها ، ولكن ثقتها بشجاعته هونت عليها الأمر ، ثم عادت هى إلى الاضطراب لما استبطأت حمادا، لأنها كانت تتوقع رسالة منه أو خبرا عنه ، فلما طال الأمد ولم تسمع عنه شيئا انقبضت نفسها واستبدت بها المخاوف ..

وكانت والدتها تراقب حركاتها وسكناتها ، وقد أدركت ما بها، فأخذت تشاغلها بالآمال وتواسيها بالوعود ، وهى لا يهدأ لها بال ، على أنها كانت تذهب إلى دير بحيراء أيام مرور قوافل الحجاز به لعلها تسمع من أحد حديثا يطمئنها .. وصارت تستأنس بالحجازيين وترتاح إلى كل قادم من الحجاز ، وخصوصا القادمين من مكة ، ولكنها كانت كلما سمعت اسم الكعبة اختلج قلبها ، حتى التقت يوما بقافلة قادمة من مكة ، فسمعت الناس يتحدثون عن فتحها وما كان من دخول المسلمين إليها، فارتعدت فرائصها ، وتصورت «حمادا» فى تلك المدينة عرضة لسيوف المسلمين .

ثم رأت أن ترددها إلى الدير واستماع تلك الأحاديث لا يزيدها إلا قلقا ، فانقطعت عنه، وانزوت في صرح الغدير لا ترى ولا تسمع خبرا، مخافة أن يكون فيما تسمعه نبأ يكدرها ، ثم سمعت بموت «الحارث بن أبى شمر» والد «ثعلبة» فأحست بارتياح ، لعلمها أن موته يقلل من نفوذ ابنه لدى والدها .. على أن ذلك لم يزد شيئا من أسباب سعادتها ، فالهموم ظلت تتراكم عليها ، وهى تزداد نحولا وانقباضا وميلا إلى الخلوة .

وأما والدتها فقد كانت لذكائها وحدة ذهنها لا تغفل عن خاطر يمر فى ذهن ابنتها ، وقد شعرت بارتكابها أمرا قبيحا بإرسال «حماد» فى مهمة خطرة . وقد زاد ندمها بعد خبر وفاة «الحارث بن أبى شمر» وضعف نفوذ «ثعلبة» مع كره هند له ، فتحققت عند ذلك أن هندا يستحيل عليها الزواج به ، وقد أصبح بعد موت والده وضيع المنزلة .

فأصبحت «سعدى» بسبب ذلك تشعر بخطأ فظيع ارتكبته فى حق

ابنتها، إذ حرمتها شابا شهما يحبها وتحبه ، وصارت هى أكثر رغبة من هند فى عودة حماد ، وصممت فى نفسها على أنه متى عاد ولو بغير القرطين أن تساعده فى الزواج .

أما «جبلة» فقد كان فى البلقاء مشتغلا بالحرب فى «مؤتة» فما رجع المسلمون حتى توفى الحارث ، فزاد اشتغاله وعظم اهتمامه بضم قبائل العرب فى الشام والبلقاء إليه ، لأن العرب المتنصرة هناك قبائل، لكل منها راية وأمير ، وكانت فى زمن الحارث منقسمة إلى فئتين : إحداهما تابعة للحارث والأخرى لجبلة ، فلما توفى الحارث اشتغل جبلة بضم بعض قبائل الحارث إليه ، ولم يطمع فى ذلك إلا لعلمه بضعف «ثعلبة» عن القيام بما قام به والده قبله ، ولاعتقاده أن أمراء القبائل أنفسهم يكرهون «ثعلبة» لدناءته وشراسة أخلاقه . فوقع بسبب ذلك تنافر بين جبلة وثعلبة ، وأحس هذا بضعفه ، لكن سوء خلقه لم يهده إلى سبيل يسترضى به عمه ، فأخذ يطعن فيه أمام الأمراء . وبلغ ذلك جبلة فحقد عليه وزاد سعيه حتى أخرج كل العرب الغساسنة من حوزته ، ولم يترك منهم إلا القلة .

فازداد «ثعلبة» لؤما وسفاهة ، وأخذ يطعن فى جبلة وابنته وسائر أهل بيته ، فندم جبلة لما وقع منه فى حق حماد ، وأسف لإرساله فى تلك المهمة الخطرة .. ولم يزدد مع الزمان إلا ندما ولكنه أخفى ندمه مترقبا ما يجيء به القدر .. على أنه صمم فى نفسه أن يكفر عما ارتكبه فى حق حماد بأن يزوجه بابنته سواء عاد بالقرطين أو بدونهما .

«هند» والقمر

وما زالت هذه حال «هند» حتى كاد ينقضى العام ولم تسمع عن «حماد» خبرا ، فترجح لديها أنه إما قتل ، أو فشل وشق عليه الرجوع فاشلا ، فهاجر إلى مكان بعيد ، فتراكمت عليها الهموم وما أسدل الليل نقابه حتى دخلت إلى غرفتها وأوصدت الباب وراءها ، وجلست إلى النافذة المطلة على الحديقة وعادت إلى البكاء ، فأطلقت لنفسها العنان ، فما لبث أن سمعت من يقرع الباب ، فعلمت أن والدتها

سمعت صوت بكائها فجاءت لتخفف عنها .. فمسحت عينيها ونهضت لتفتح الباب ، فدخلت «سعدى» وعانقت «هند» وجعلت تقبلها وتنظر إلى وجهها ، ثم قالت لها : «ما بالك يا ابنتى ! ما الذى يبكيك ؟ لماذا لا تشكين إلى همك ، ألست والدتك ؟ ألا تعلمين أنى أحبك ؟» .

فلبثت «هند» صامتة ، ففهمت «سعدى» أنها تلومها لما ارتكبته فى شأن «حماد» ولكنها أرادت مغالطتها ، فأخذتها بيدها وقالت : «ما بالك لا تجيبيننى يا هند ؟ أتكتمين عنى شيئا ؟ قولى يا ابنتى ماذا يبكيك ؟» .

فنظرت «هند» إليها فرأت «سعدى» الدموع تتلألأ وهى ساقطة من عينيها ، فانفطر لها قلبها ، فضمتها إلى صدرها ، وتناولت منديلها وجعلت تمسح لها الدموع ، فحولت «هند» وجهها نحو النافذة ، فنهضت «سعدى» ، وقالت لها : «قولى يا ابنتى ما الذى يبكيك ؟ لقد قطعت قلبى ولم يعد لى صبر على بكائك .. ألا تعرفين قلب الوالدة ؟!» .

فوقفت «هند» قائلة : «نعم يا أماه، إنى أعرف قلب الوالدة، ولكن الوالدة لا تعرف قلب ابنتها» .

فأدركت «سعدى» مرادها فقالت : «ومن قال لك يا هند أني لا أعرف قلبك؟» .

فقالت هند : «لو عرفت قلبى ما سببت له هذا الشقاء لأنى أعرف حنوك» ..

قالت سعدى : « كيف لا أعرف قلبك يا ابنتى وقد كشفت لى غوامض أسراره ؟» .

فهزت «هند» رأسها وهمت بالجواب ثم سكتت ، فأتمت والدتها الكلام قائلة: «ومع ذلك فإن الأحوال قد تغيرت بموت «الحارث» وإذلال «ثعلبة» ، فسواء جاء «حماد» بالقرطين أم جاء بدونهما فليس ثمة من يقف فى سبيله» ...

فلما سمعت اسم «ثعلبة» ارتعشت أطرافها ، وقالت : «آه يا أماه ، لقد انتهى الأمر .. أين «حماد» الآن ؟ .. آه أين هو ؟ هل تعلمين أين هو وقد انقضى عام منذ سار من هذا المكان؟» ، وقالت وهى تبكى : «آه يا حماد» .. يا حبيبي أين أنت الآن ؟ ألعلك على الأرض أم فى السماء ؟ أم أين أنت ؟ .. من يخبرنى بمكانك لكى أطير إليك ، فإما أن أعيش بقربك أو أدفن تحت قدميك» .

فرأت «سعدى» أن تتركها هنيهة ريثما يهدأ روعها ، فسكتت قليلاً حتي هدأت هند، ثم قالت لها : «خففي عنك يا ابنتى ، فأنت مثال التعقل والرزانة عندنا ، فكيف أطلقت لنفسك العنان ؟» .

فظنت «هند» أنها تؤنبها فقالت : «كفانى تأنيبا فقد علمت أنى أتيت أمرا يعاب عليه أمثالى ، ولكن الكأس قد فاضت» .

قالت سعدى : «إن «حمادا» نصيبك ، وقد قلت لك سواء جاء بالقرطين أم لم يجيء بهما ، فإنه لك وأنت له» .

فتنهدت هند وقالت : «هذا إذا قدر أن نراه ، ولا أظنه يعود إذا أخفق فى مهمته ، فلن يعود إلينا صفر اليدين» ..

قالت سعدى : «تدبرى الأمر بالصبر والحكمة ، وتوكلى على الله، إنه قادر على كل شيء» .

فتأملت «هند» فى حديث والدتها ، فترجح عندها أنها تقول الصدق فى شأن «حماد» وزواجه بها سواء جاء بالقرطين أم لم يجيء بهما ، فسرها ذلك ، ولكنها أرادت أن تستطلع ما يكنه والدها فى هذا الصدد ، فقالت لوالدتها : « فهل يرضى والدى به ؟» .

قالت والدتها : «إن والدك أشد رغبة منى فى الأمر ، وخصوصا بعد أن وقع ما وقع بينه وبين ذلك الخائن من النفور على أثر وفاة والده «الحارث» ، توكلى على الله ، ولنطلب إليه تعالى أن يحفظ لك خطيبك ، ويعيده إليك سالما معافى» .

فسكن روع «هند» ، وبعد هنيهة سارت إلى فراشها وسلمت أمرها إلى الله ..

البشارة

وأصبحت فى الغد وقد عاد إليها الاكتئاب .. فودت لو أنها لم تستيقظ، أو أنها ظلت نائمة فلم تفق إلا على صوت «حماد» ، فلبثت فى الفراش تلتمس النوم ، وأخذت تتقلب عبثا ، فلما كان الضحى جاءت والدتها تتفقدها.. فلما رأتها فى الفراش ، قلق بالها وسألتها عن السبب ، فشكت لها تكاسلها عن القيام ، حتى كانت الظهيرة ، فسمعتا صوتا خارج الصرح ينادى : «من نذر نذرا لبحيراء المبارك ؟» ، فخفق قلب «هند» لذلك الصوت ، وهبت من فراشها بغتة ، وبغتت أيضا والدتها لأنهما تنسمتا صوت «سلمان» ، وتذكرتا قدومه إليهما قبلا فى شأن «حماد» فهرولتا إلى النافذة ، فرأتا راهبا على فرس مثلما رأتا سلمان، فتحققتا أنه هو بعينه ، فحسبت هند نفسها فى حلم لقدومه عليهما بغتة على غير انتظار ، فنادتاه فتحول ودخل ، فخرجت «سعدى» لاستقباله ، وظلت «هند» فى الغرفة جالسة وركبتاها ترتجفان من التأثر ، ولم تستطع الوقوف إلا بعد هنيهة ، وقد سمعت وقع أقدام الرجل مع والدتها داخلين إلى القصر ، فوقفت لاستقبالهما . فوصل الرجل إلى باب غرفتها ، وحالما وقع نظرها عليه عرفته ، ولم تعد تعلم كيف تكلمه ، فابتدرها هو بالسلام وتبسم ، وهم بتقبيل يديها فمنعته ، وصاحت : «ما وراءك يا سلمان ؟» .

قال : «ما ورائي إلا الخير يا سيدتى ، كيف أنت ؟» .

قالت : «نحن بخير ، وكيف «حماد» ؟ أين هو ؟ أخبرنا» .

قال : «هو بخير ، وقد تركته في دير بحيراء ينتظر أمرك ويدعو لك» ..

قالت : «هل هو بخير وعافية ؟» .

قال : «نعم يا مولاتى إنه بخير ، وقد التقى بوالده فى المدينة» فخرت «هند» إلى الأرض فقبلتها ، وقالت : «نحمد الله على سلامته» قالت ذلك وقد انبسط وجهها .

قالت سعدى : «أين حماد ؟ ولماذا لم يأت معك ؟» .

قال : «إنه بقي فى الدير خجلا من مقابلتكم» .
قالت : «وما الذى يخجله ؟ إننا لا نريد منه شيئا غير سلامته» .
قال : «والقرطان ؟» .
قالت : «لا حاجة بنا إليهما ، فقد زال السبب الذى دعا إلى طلبهما» ..
قال : «إن أمر القرطين قد عاد علينا بالإخفاق ، فلم نقف لهما على خبر» ، وقص عليهما حكاية سفرهما من يوم خروجهما من صرح الغدير إلى أن عادا ، وكيف التقيا بعبد الله ، وما عزما عليه من البحث عن «القرطين» فى العراق ..
فقالت هند : «دعنا من الأقراط ، فقد أغنانا الله عنها» .
فعجب لذلك التغيير ، وأراد أن يعلم رأى «جبلة» إن كان مثل رأيهما .. فقال : «وهل سيدى الملك جبلة بخير؟» .
قالت سعدى : «نعم هو بخير ، ينتظر قدوم صهره «حماد» بفارغ الصبر» .
فلما سمع قولها «صهره» زاد اطمئنانا برضاها عن «حماد» فقال : «وهل هو أيضا أغفل أمر القرطين ؟» .
قالت : «إنه لا يريد شيئا غير سلامة ولدنا «حماد» فادعه إلينا لنراه» ..
قال : «إنه يود ذلك من صميم قلبه ، فأذنوا له بفرصة كي يأتي إليكم» ..
قالت : «فليأت فى أقرب وقت .. ولكننا نود حضوره ووالد «هند» معنا هنا ، ليفرح بعودته ، وليكن أيضا والده معه ليتم الفرح» ..
ففرح «سلمان» بهذه الأخبار ، ولكن خاطرا مر بذهنه فأسكته بغتة ، فلمحت «هند» ذلك فقالت له : «ما بالك يا «سلمان» ؟ ما الذى أسكتك ؟ فهل هناك ما يمنع حضوره ؟ أخبرني» .
قال : كلا يا مولاتي ، إنه ينتظر هذا اللقاء انتظار الظمآن للماء الزلال ، وهو إنما تحمل الأخطار ومشاق الأسفار طمعا في ذلك .. ولكنه ..» .

فبغتت هند وسعدى معا ، وقالتا : «ما الذى يدعو إلى ترددك ؟ قل يا «سلمان» لقد شغلت بالنا» .
قال : «لا يخفى عليكما أن سيدي «حمادا» تشرف بخطبة سيدتى «هند» ووالده لا يعلم ، ولما علم بذلك يوم اجتماعنا فى المدينة سر كثيرا .. ولكنه استمهل «حمادا» فى إتمام هذا الأمر ريثما يأتى يوم الشعانين» .
قالت سعدى : «وما علاقة يوم الشعانين بذلك ؟» .
قال : «لا علاقة له به إلا من حيث النذر ، فقد علمتم أن سيدى «حمادا» منذور أن يقص شعره فى دير بحيراء من يوم ولادته ، على أن يكون قصه يوم الشعانين فى السنة الحادية والعشرين من عمره ، فلما كان اليوم الموعود منذ عامين حدث ما حدث مما تعلمانه ، ولم يتمكن من وفاء النذر ، فلما عاد من هذا السفر قال سيدى «عبد الله» إنه سيقص شعره فى يوم الشعانين القادم بعد بضعة أشهر ، وطلب منه ألا يباشر عملا مهما قبل ذلك اليوم ، لأنه سيطلعه على أمور تهمه ، ولكننى لا أظن أن لها علاقة بهذا الأمر» .
فلما سمعت «هند» ذلك الكلام استعاذت بالله مما هو مخبأ لها فى عالم الغيب ، وقالت فى نفسها : «لعل أمامنا عراقيل أخرى غير التى انقضت ؟» .
فقالت سعدى : «لا بأس ، ولكن ذلك لا يمنع سيدك من الحضور ليلتقى بوالد «هند» وخصوصا لأنه غريب ، أما ذلك الأمر فما نحن فى عجلة إليه ، وإنما المراد أن تطمئن قلوبنا ويهدأ بالنا ، ويرى بعضنا بعضا وقد زالت العقبات بموت الحارث وسقوط نفوذ ثعلبة بين القبائل» .
فقال سلمان : «نحمد الله على نعمه .. ولا أستطيع أن أصف لكم مقدار سرور مولاى «حماد» بهذه الأخبار ، فعينوا المكان والزمان اللذين تريدان الاجتماع فيهما لأخبر سيدى» .

قالت هند : «فليأت «حماد» أولا لنراه ، ثم نحدد يوما يجتمع فيه الوالدان ، لأننا نخشي إذا انتظرنا اجتماعهما أن يطول الأجل ، فإن والدى فى البلقاء ، ولا يستطيع المجيء إلا بعد بضعة أيام» . وأرادت «هند» بذلك أن تجتمع بحماد قبلا على انفراد ، فتستوضح أمر النذر وعلاقته بالزواج .

فقال سلمان : «هأنذا ذاهب لأدعوه ، وأظنه يكون هنا فى صباح غد إن شاء الله» .

فخرج وقد ندم علي ما فرط منه فى حديثه عن «عبد الله» ، وعلم أنه أخطأ فيما ذكره بشأن النذر ، فأسرع حتى بلغ الدير فى مساء ذلك اليوم ، وكان قد سار فى هذه المهمة ولم يخبر «عبد الله» .

فلما وصل إلى الدير كان «حماد» فى انتظاره ، فاستقبله وهو ينظر إلى وجهه لعله يقرأ علي ملامحه ما يطمئنه ، فرآه يبتسم ووجهه منبسط ، فرحب به وسأله عن الخبر ، فقال : «أبشر يا مولاى .. إن الله قد محا كل شقاء كتب علينا ، وزالت كل الموانع التى كنا نخشى وقوعها بينك وبين هند» ..

فقال : «وكيف «هند» ؟ هل هى مسرورة برجوعى ؟ وهل علمت أننا لم نعثر على القرطين ؟ وماذا قالت ؟» .

فضحك سلمان ، وقال : «إن القرطين لم يعد لهما دخل فى أمر زواجكما ، فقد تغير وجه المسألة بموت الحارث بن أبى شمر» ، وقص عليه الخبر إلى أن قال : «وإذا شئت الزواج في صباح غد فهو لك ، لأن والدة الفتاة ووالدها راضيان بك ولا يريدان منك شيئا ، وأما هند فأنت تعلم قلبها» .

قال حماد : «وهل طلبت لقائى ؟» .

قال سلمان : «كيف لا وقد طلبت أيضا أن يأتى مولاى والدك، على أن يكون الملك «جبلة» موجودا لتتم المعرفة بينهما» ..

فقال حماد : «ولكنك تعلم أن والدى لا يقبل مرافقتى فى هذا الشأن» ..

قال : «إنى أعلم ذلك ، وقد ذكرته أمام سيدتى هند» .

فبغت «حماد» وقال : «كيف ذكرته ؟ وماذا قالت ؟» .

قال سلمان : «ذكرته بأسلوب لطيف .. فقلت إن سيدى «عبد الله» سر كثيرا بخطبتكما ، ولكنه يود وفاء النذر قبل عقد الزواج» .

قال حماد : «أخشى أن تكون «هند» قد فهمت شيئا يحملها على إساءة الظن» .

قال سلمان : «لا أظنها فهمت شيئا من ذلك ، وعلى كل حال فإنك ذاهب إليها فى صباح غد، وقد أجلنا اجتماع والديكما إلى فرصة أخرى ، فإذا اجتمعتما فأفهمها الحكاية كما تريد» .

قال حماد : «إذن نذهب إلى صرح الغدير فى صباح غد ، وماذا نفعل بوالدى ؟ هل نخبره ؟» .

قال سلمان : «أرى أن نخبره بأننا ذاهبان لطمأنة أهل الصرح بعودتنا ، ولا تتحدث بشأن الخطبة أو الزواج مطلقا» .

قال حماد : «هذا هو الصواب» .

«حماد» و «هند»

وفى مساء ذلك اليوم خاطب «حماد» والده فى أمر «هند» وقال : «إن وفاة الحارث ربما سهلت أمر الزواج ، وربما عدلوا عن طلب القرطين» . وأظهر سروره بذلك ، فلم يجبه «عبدالله» بكلمة..

فقال حماد : «ألم تسر يا والدى بذلك ؟» .

قال عبد الله : «إنى أسر لسرورك ، ولكننى لا أزال ألح عليك فى التأنى فى هذا الموضوع ريثما يأتى يوم الشعانين ونفى بنذرنا» .

قال حماد : «أعاهدك على أنى لا أباشر أمرا قبل مجىء ذلك اليوم .. ولكننى عازم فى صباح غد على الذهاب إلى الصرح للقاء «هند» ووالدتها بقصد الاطمئنان ، وأظنهما تودان مشاهدتك» ..

قال عبد الله : «دع ذلك حتى يمر يوم الشعانين ، أما أنت فاذهب لمشاهدة أهل صرح الغدير» .

قال حماد : «حسنا» .

وفى صباح الغد ركب «حماد» فى ساعة مبكرة ، وركب «سلمان» معه ، وسارا قاصدين الصرح ..

أما «هند» فإنها لم تنم تلك الليلة إلا عند الفجر ، لعظم فرحها بقدوم «حماد» ، فغمض جفناها ، فنامت هنيهة ثم أفاقت والشمس قد طلعت ، فظنت نفسها قد أبطأت فى الفراش ، وخافت أن يأتى «حماد» وهى نائمة ، فنهضت ، واغتسلت ولبست ثيابها وعادت إلى غرفتها وفيها نافذة تشرف على طريق «بصرى» ، فجلست إليها ، وعيناها متجهتان نحو الأفق ، لعلها ترى حمادا قادما .. وكانت كلما رأت شبحا أو ظلا أو سمعت صهيلا أو وقع أقدام خفق قلبها ، ولا يكاد يحدث فى الصرح صوت إلا سمعته كأنها كلها آذان لعظم تأثرها .

أما «سعدى» فقد كانت توصى الخدم بإعداد ما يلزم للضيافة من الذبائح ونحوها ، فلما فرغت من ذلك فكرت فى هند وما يكون من حالها عند لقائها بحماد بعد طول غيبته ، فرأت أن تسير إليها وتشاغلها لتخفف ما بها من قلق الانتظار .

فلما سمعت «هند» وقع أقدام والدتها ،همت لاستقبالها، فابتدرتها «سعدى» قائلة : «ما بالك منفردة يا «هند» ؟ هيا بنا إلى الحديقة نتنسم رائحة الأزهار ، لأن بقاءك هنا ممل» .

قالت ذلك وأمسكت بيدها ، ومشتا حتى نزلتا إلى البستان وأوغلتا بين الأشجار ، وهند تسارق النظر من بين الشجر لعلها ترى حبيبها قادما ، وقلبها يحدثها بالرجوع إلى القصر لئلا يصل حماد فى أثناء غيابها .

وفيما هما فى ذلك ، سمعتا صهيلا عرفت هند على الفور أنه صهيل جواد حماد ، فخفق قلبها، وأرادت أن تعود نحو باب الحديقة لتستقبل حماداً.

فقالت لها «سعدى» : «دعينا هنا فإنه لا يلبث أن يأتى فنراه» ، وقد أرادت سعدى أن يكون اللقاء على انفراد .

فسكتت «هند» ، ولكنها ظلت تنظر من خلال الأشجار نحو باب الحديقة تنتظر مجيء حماد بفارغ الصبر .. ولم تمض هنيهة حتى رأته قادما وعلى رأسه الكوفية والعقال ، وقد تقلد السيف تحت عباءة حريرة مزركشة بالقصب ، فلما وقع نظرها عليه زاد خفقان قلبها، وظلت واقفة . أما والدتها فتقدمت حتى التقت بحماد، فسلمت عليه، وهمّ بتقبيل يدها احتراما فمنعته ، وهند لا تزال واقفة وقلبها يحدثها بالمسير نحوه ، ولكن الحشمة والحياء منعاها .

أما هو فأسرع نحوها ومد يده مسلما ، ووجهه يطفح سرورا وعيناه شاخصتان إليها .

فمدت يدها وهي تنظر إلي الأرض خجلا ، ولكن الابتسام غلب عليها ، ولما أمسكت يده شعرت بقوة سرت في كل أعضائها ، ثم توردت وجنتاها وبرقت أسرتها . فقال حماد : «كيف أنت يا هند ؟ لقد أطلت الغيبة عليكم ، ولكنني عدت مع ذلك بخفي حنين» .

فغلب عليها الحياء ، ولكنها نظرت إليه بعينين تنبعث أشعة الهيام منهما ، وقالت : «لا حاجة بنا إلى القرطين ، وإنما حاجتنا إلى عودتك سالما ، فالحمد لله علي ذلك» .. قالت ذلك ودموع الفرح تتناثر من عينيها وهى تبتسم ، وأرادت إخفاء دموعها ، فتحولت نحو شجرة بالقرب منهما تحتها مقعد من حجر للجلوس ، وتحول حماد وسعدى والكل سكوت ، ولكن قلبى العاشقين يتكلمان.

ولما استقر بهم الجلوس ، قالت سعدى : «لقد أطلت الغيبة علينا ، فقلق بالنا كثيرا ، ولما سمعنا حكاية سفركم من «سلمان» حمدنا الله على عودتك سالما بعد ما تعرضت له من الأخطار» .

قال : «لا يهمنى من أمر سفرتى هذه شيء ، سوى أن محاولاتى لم تكلل بالنجاح والتوفيق ، وأن يكن ذلك فى الواقع لغير قصور منى».. وفى نيتى أن أواصل البحث عن القرطين فى العراق أو غيرها حتى آتى بهما» ، فابتدرته «هند» قائلة : «لا حاجة بنا إلى الأقراط ، فإن عندنا من فضل المولى ما يكفينا مؤونة هذه الأسفار» .

قال : «وماذا يقول الناس عنى وقد عدت صفر اليدين ؟ أليس عارا على «حماد» أن يرجع خائبا عن أمر طلبته «هند» ؟» ، قال ذلك وعيناه تنظران إلى «هند» ويكاد النور ينبثق منهما .

فالتفتت هى إليه ، وقالت وهى تبتسم : «لا .. لم يعد «حماد» خائبا ، لأنه جاهد فى سبيل القرطين جهادا حسنا ، ولا يزال ساعيا فى التفتيش عنهما فى خزائن الحيرة ، ولكن نحن حولناه عن عزمه، فما ذلك من قبيل الفشل ، لا سمح الله» .

ثم قالت «سعدى» : «إن أمر القرطين يا ولدى لا يهمنا مطلقا، فمن فضل الله أن مثل هذه الأقراط كثير عندنا .. من ذلك لؤلؤتان معلقتان بتاج الملك «جبلة» هما مثل لؤلؤتي قرطي مارية تماما ، حتى لقد يحسبهما الناس نفس لؤلؤتي القرطين» .

قال حماد : «إنى لا أجهل فضل الله على ملوك غسان ، زادكم الله نعما ، ولكنى وددت أن أجعل لى سبيلا أستحق به «هند» ، فلا نسبى وحده ولا حسبى يخولاننى هذا الشرف ، ولكن ذلك من جملة كرم الغسانيين على الغرباء» ، قال ذلك وتبسم ، والتفت إلى «هند» فإذا هى تبتسم أيضا وتنظر إلى الأرض .

فالتفتت «سعدى» إليه وقالت : «إن النسب يا ولدى لا يجعل الإنسان إنسانا ، فإن ما شهدناه من شهامتك وكرم أخلاقك لجدير بأن يرفع منزلتك إلى مصاف الملوك ، وكم من ملك تحطه دنائته إلى مصاف الصعاليك ، قالت ذلك ونظرت إلى «هند» كأنها تذكرها بدناءة «ثعلبة» والمقابلة بينه وبين «حماد» .

ثم قالت سعدى : «لقد سرنا العثور على والدك ، هل هو بخير؟ وهل ينوى زيارتنا ؟ فإنى أحب تعريفه بالملك «جبلة» ليتم سرورنا ، فقد زالت كل الحواجز والحمد لله» .

فتذكر «حماد» مسألة النذر وحكاية يوم الشعانين ، فقال فى نفسه : «لم تزل أمامنا عقبة لا ندرى ما وراءها» . ولكنه أجاب «سعدى» قائلا : «إن والدى يسر كثيرا بمقابلة الملك «جبلة» وهو شرف يتمناه

أمثالنا ، ولكنه الآن فى شاغل ، وسيغتنم أول فرصة لمقابلة مولاى الملك ، وأنا كذلك» .

جبلة

وفيما هم فى مثل هذه الأحاديث ، فإذا بأهل القصر ينشطون حركة واهتماما ، ثم جاءهم شخص ينبئهم بمن يبشر بقدوم الملك «جبلة» إلى الصرح ، فبغت الجميع لقدومه على غير انتظار ، ونهضوا ينتظرون قدوم الملك .

فمشوا صامتين وكل منهم يفكر فى أمر ، وكان «حماد» أكثرهم بغتة واهتماما ، لأنها أول مرة سيقابل فيها «جبلة» بعد عودته ، فخشى أن يكون اخفاقه فى البحث عن القرطين سببا فى فتور محبته .. وأما «هند» فكانت تتوقع من والدها حنوا على «حماد» ، بناء على ماسمعته من والدتها ، وأما «سعدى» فلم تستغرب قدومه لأنها هى التى أرسلت إليه رسولا بالأمس تخبره بمجىء «حماد» وأنه سيزورهم فى ذلك النهار ، فإذا استطاع المجىء فعل ..

فوصلوا إلى القصر ، ودخلوا قاعة الجلوس ، وما أن استقر بهم المقام حتى نودى فى القصر بمجىء الملك ، فخرج أهله لاستقباله، وخرج «حماد» و«هند» ووالدتها إلى الحديقة .

وصل «جبلة» ، ونزل وهو يلتفت ذات اليمين وذات الشمال يبحث عن «حماد» حتى إذا وقع نظره عليه دنا منه ، فتقدم «حماد» .. أما «جبلة» فأسرع إليه وسلم عليه مصافحا ، وقبله قبلة الوالد لولده، فلما رأت «هند» من والدها ذلك رقص قلبها طربا وتناثرت دموع الفرح من عينيها ، وكذلك والدتها . أما «حماد» فإنه قبل يدى عمه وقد تحقق رضاه عنه ، فقال له «جبلة» : «أهلا بولدى وعزيزى .. نحمد الله على عودتك سالما» ..

فأجابه «حماد» ، وملامح الامتنان ظاهرة على وجهه : «الحمد لله على كل حال .. ولكننى أحمده لنعمته على برضاء ملك غسان ، فإنها نعمة أعجز عن تقديرها يا عمى» .

ثم تحول «جبلة» نحو «هند» فقبلت يده وقبلها ، ثم حيا «سعدى» ، ومشى الجميع نحو القاعة ، وعينا «حماد» على «هند» .

وكان «سلمان» فى جملة أهل القصر الوقوف فى انتظار «جبلة» .

ودخل جبلة وسعدى وهند وحماد القاعة ، فسأل حماد عن سلمان، وعندما جاء؛ نهض «حماد» وأمسكه بيده وقدمه إلى الملك قائلا : «أقدم لكم ياعمى رفيقى وصديقى «سلمان» فإنه كان سندى فى أسفارى» ..

فرحب به «جبلة» وأمره بالجلوس فجلس ، والجميع جلوس ، ثم التفت «جبلة» إلى «حماد» وسأله عن والده ، فقال : «إني تركته فى دير بحيراء ، على أن يحظى بمقابلة مولاى فى فرصة أخرى» ..

ثم وجه «جبلة» خطابه إلى «سعدى» قائلا : «اسقينا شيئا نرطب به أجوافنا ، ونشربه نخب اجتماعنا فرحا بقدوم صهرنا سالما» ..

فقالت : «ألا ترى أن نجلس إلى المائدة فنتناول الطعام والشراب معا؟» ..

قال : «حسنا تفعلين !» .

فصفقت ، فجاء غلام .. فقالت : «هل تمت معدات الطعام ؟» .

قال : «نعم يامولاتى» .

فنهض «جبلة» ومشى ، وتبعه الجميع إلى غرفة الطعام.. فلما فرغوا من طعامهم .. أشار «جبلة» إلى «حماد» أن «اتبعنى» ، فتبعه حتى خرجا من القصر ، فلما انفردا قال «جبلة» : «اعلم يا حماد أنك الآن بمنزلة ولدي ، وقد تركت إليك تحديد موعد الزواج ، ولكننى أوجه التفاتك إلى أمر واحد ، ،وهو أن «هند» كما تعلم وحيدة، وليس لنا ابنة سواها ، فيشق علينا فراقها ، فأشترط عليك إذا تم الزواج أن تقيم عندنا أنت ووالدك ومن تريده من ذويك ، فإن البلاد تحتاج إلى من يتولاها ، وليس لى ولد ذكر .. فإذا أحسنت السياسة مع القبائل اجتمعوا تحت لوائك ، وكنت ملكا عليهم» .

فلم يعد يعرف «حماد» كيف يشكر فضله فقال : «إن هذه النعم يعجز لسان المرء عن أداء الشكر عليها .. أما وقت الزواج فلا يمكننا تحديده الآن لدواع لا أخفيها عنك» .

قال : «وماهى ؟» .

قال حماد : «لعل مولاى رأى طول شعرى لما لبست الدرع يوم السباق» .

قال جبلة : «نعم أذكر ذلك ، وما سبب طوله ؟» .

قال حماد : «أن والدى نذر أنى إذا عشت لايقص شعرى إلا فى الحادية والعشرين من عمرى فى دير بحيراء ، وحدد لذلك موعدا يوم الشعانين .. وقد حان ذلك اليوم منذ عام وبضعة أشهر ، فجئنا البلقاء ، فحدث ماحدث من سعى «ثعلبة» ضدى ، والقبض على والدى ، ثم لم نجتمع إلا منذ أمد قريب فى المدينة .. فيرى والدى أن ننتظر حتى يوم الشعانين القادم ويقص شعرى فى الدير .. وقد أخبرنى أن عنده حكاية سيقصها علىّ فى ذلك اليوم ، وأوعز إليّ ألا أقطع فى أمر من الأمور المهمة إلا بعد ذلك اليوم ، فما رأى مولاى ؟» .

فعجب «جبلة» لذلك السر ، وقال : «لا أرى مانعا من تأجيل الزواج إلى مابعد الشعانين ، فنجعله فى يوم «عيد القيامة» ، ولكننى استغربت هذا السر ، ألا تعلم ما موضوعه ؟» .

قال : « كلا ياعمى لا أعرف عنه شيئا ، ولا يعلم به أحد سوى والدى» ..

قال جبلة : «فلننتظر يوم الشعانين» .

ثم تحولا نحو القصر ، وكانت «هند» ووالدتها جالستين فى القاعة، فدخل «جبلة» و«حماد» وقضوا بقية ذلك اليوم فى أحاديث متنوعة..

فلما حان العصر ، التمس «حماد» العودة إلى الدير لئلا يستبطئه والده .

فهم «حماد» بيد عمه فقبلها ، وكذلك فعل «سلمان» وودع «هند» و«سعدى» .

أما «حماد» فإنه وصل إلى الدير فى مساء ذلك اليوم ، وكان والده فى انتظاره ، فاستقبله ودخلا الغرفة ، فحكى له حماد ما لاقاه من الإكرام والاحتفاء ، وما دار بينه وبين جبلة .

وكان «حماد» يتوقع أن يرى من والده بعد هذا الحديث إعجابا أو سرورا ، فلم ير وجهه يزداد إلا انقباضا ولم يجب بكلمة ، فلبث «حماد» ينتظر يوم الشعانين بفارغ الصبر .

قص الشعر

وكان «عبدالله» كلما دنا ذلك اليوم ازداد انقباضا ، حتى قيل غدا يوم الشعانين ، فعلم أن الدير سيكون مزدحما فى ذلك اليوم ، وهو إنما يلتمس الانفراد بحماد ليقص عليه الحكاية ، فسار إلى رئيس الدير وأطلعه على قصده .

فقال رئيس الدير : «وأى الغرف تريدون ؟» .

قال عبدالله : «نريد صومعة ، منفردة» ..

قال رئيس الدير : «ولكن الناس يأتون إليها فى مثل هذا اليوم زائرين» ..

قال عبدالله : «يزورونها بعد خروجنا منها ، فربما مكثنا فيها ساعات قليلة من الصباح إلى الظهر» . فأذعن له الرئيس .

ثم قال عبدالله : «أعرف راهبا شيخا من تلامذة بحيراء الراهب صاحب هذا الدير، كان يقيم فى الصومعة ، فهل هو باق هنا ؟» ..

قال رئيس الدير : «إنه باق ولكنه يشكو شدة الضعف لشيخوخته ، فلا يخرج من غرفته إلا نادرا» .

قال عبدالله : «ألا تظنه يخرج فى صباح غد إذا توسلنا إليه أن يرافقنا إلى الصومعة ، ويقص شعر غلامنا» .

قال رئيس الدير : «لا أعلم ، ولكن عندنا من الرهبان والقسوس كثيرين يفعلون ذلك» .

قال عبدالله : «صدقت ، ولكننى أفضل ذلك الراهب الشيخ لأننى أعرفه» ..

قال رئيس الدير : «هلم بنا إليه نسأله ، عسى أن يرضى» ..

وسار إلى غرفة من غرف الدير مغلقة الباب ، فقرعاه وانتظرا .. وبعد هنيهة فتح الباب وظهر من ورائه شيخ هرم قد ابيض شعره بياضا ناصعا ، فتقدم الشيخ وإحدى يديه على الباب ويده الأخرى يتوكأ بها على عصا قديمة ، وحدق فى زائريه ، وكان قد عرف الرئيس ، ولكنه لم يعرف رفيقه ، فابتدره «عبدالله» بالسلام ، وهم بتقبيل يده ، فعرفه الراهب فقال : «أهلا بولدى الأمير «عبدالله» ابن الوطن العزيز ، تفضل ياولدى ، ادخل» فدخل عبدالله ، ودخل الرئيس معه ، وجلس كل منهما على وسادة. ثم تكلم الرئيس فقال : «إن ولدكم الأمير «عبدالله» يلتمس حضوركم للاحتفال بقص شعر ابنه ، وفاء لنذره منذ بضع وعشرين سنة» ..

فصمت الشيخ برهة ، ثم رفع نظره إلى «عبدالله» بغتة ، وقال : «ما اسم غلامكم ؟» ..

قال عبدالله : «حماد» .

قال الشيخ : «نعم «حماد» أذكر أنى رأيته فى الصومعة منذ عامين ، وأخبرنى أنه جاء لقص شعره ، وكان يوم الشعانين قريبا ، ألم تفوا بالنذر بعد ؟» .

قال عبدالله : «لا يامولاى ، لم نستطع ذلك لأسباب فرقت بيننا ، فلما اجتمعنا جئنا لنفي بالنذر ، فهل تريد أن يكون الوفاء به على يدك ؟» .

قال الشيخ : «إنى شيخ ضعيف لا أستطيع الوقوف لتأديه الفروض اللازمة أثناء الصلاة» .

قال عبدالله : «يؤديها القسيس ، وتكون أنت معنا بعد الصلاة ، فننفرد أنا وأنت وحماد لكلام أقصه عليكما» .

قال الشيخ : «حسنا ياولدى .. ومتى يكون ذلك ؟» ..

قال عبدالله : «غدا صباحا إن شاء الله» .

قال الشيخ : «سنلتقى إذن صباح غد فى الصومعة» .. قال ذلك وهو يتلهى بسبحته .. ويداه ترتجفان .

ثم نهض «عبدالله» فودع الراهب وخرج توا إلى غرفته ، وجلس ينتظر عودة «حماد» .. الذى كان قد سار إلى صرح الغدير فى صباح ذلك اليوم، ليقضى النهار مع «هند» ، و«سلمان» معه ، ولم يعودا إلا فى الأصيل.. فلما وصلا إلى الدير رحب «عبدالله» «بحماد» وقال له : «ألا تعلم ياولدى أن غدا يوم الشعانين ؟» .

قال حماد : «نعم يا أبى .. وإنى على استعداد للوفاء بالنذر» .

قال عبدالله : «جعله الله نذرا مقبولا .. وقد خاطبت الراهب الشيخ الذى كان يجلس فى صومعة بحيراء .. هل تذكره ؟» .

قال حماد : «نعم ، أذكر أنى جلست إليه مرة »..

قال عبدالله : «قد خاطبته فى أن يقص شعرك ، ويسمع ما أحكيه لك بعد ذلك» .

وكان «سلمان» لايزال واقفا بالقرب من الباب يصلح كوفيته وعقاله ، فلما سمع ماقاله «عبدالله» تقدم نحوه ونظر إليه قائلا : «ألا تظن أن خادمك «سلمان» يستحق الاطلاع على هذا السر أيضا ؟» .

قال حماد : «نعم .. إنك أولى الناس بذلك ، وستكون أنت أيضا معنا» ..

وقضوا بقية ذلك اليوم يعدون أنفسهم ، وخصوصا «عبدالله» .

وفى صباح غد ، ساروا إلى الصومعة مبكرين ، فرأوها مضيئة بالشموع ، وقد جلس فيها الراهب الشيخ ومعه قسيس آخر وشماس ، فلما اجتمعوا جميعا أخذوا فى الصلاة ، فأحرقوا البخور ، وحلوا شعر «حماد» حتى استرسل على كتفيه وظهره ، وطافوا به بالترانيم والتسابيح على مألوف العادة ، وكان الراهب قد تعب فجلس على مقعده الحجرى ليستريح ، فلما انقضت الصلاة، تقدموا نحوه وأعطوه المقص ، ودنا «حماد» منه ، فمد الراهب يده وأمسك خصلة من شعره، وقصها إشارة إلى وفاء النذر ، وبقى الشعر مسترسلا على أن يقصه عند عودته إلى المنزل ..

فلما انقضى الاحتفال ، أشار «عبدالله» إلى الراهب أنه يريد الخلوة

، فأوعز إلى الحاضرين فخرجوا ، وبقى هو و«عبدالله» و«سلمان» ، فأشار «عبدالله» إلى «سلمان» أن يغلق الباب.

فلما أغلق الباب ، خفق قلب «حماد» ، وأخرج «عبدالله» صرة كانت معه ، فحملها وأستخرج منها رداء مزركشا كان قد احتفظ به منذ أعوام، فقبله ، ثم بسطه وجعله على كتفيه، وفرش على الأرض أمام مجلس الراهب جلداً جلس عليه ، وجلس «حماد» وسلمان بين يديه ، والجميع سكوت يراقبون حركات «عبدالله» وسكناته ويترقبون مايبدو منه .

كشف السر

فلما استتب بهم الجلوس ، التفت «عبدالله» إلى الراهب وقال: «سأقص عليكم حكاية ائتمنت عليها منذ بضع وعشرين سنة ، وإنى ألتمس منكم كتمانها عن أهل الأرض كافة ، فهل تعاهدوننى على ذلك ؟» .

قال الراهب : «نعم يامولاى» ، وأقسموا علي ذلك .

ثم نظروا إلى «عبدالله» فإذا به يتأدب فى مجلسه كأنه فى مجلس رهيب ، وقد امتقع وجهه، فهابوا منظره ، فنظر «عبدالله» إلى «حماد» ووجه الخطاب إليه قائلا : «اعلم ياولدى أن اليمن وسائر جزيرة العرب أرض تقل فيها الأنهار ، ويعتمد الناس فى رى مزروعاتهم على مياه المطر ، فإنها تجتمع فى الأدوية وتجرى كالأنهار ، فإذا انقضي الشتاء جف معظمها ، فلكى يتلافوا ذلك يجعلون فى عرض الأودية سدودا من حجر تعترض مجرى الماء فيتجمع ويرتفع حتى يسقى أعالى الأرض.

وكان من تلك السدود فى اليمن سد العرم ، بناه ملوك اليمن قديما بحجارة ضخمة وفيه عيون يصرفون منها الماء بالقدر الذى يحتاجون إليه ، فتقادم عهده حتى تصدع ، وخاف الناس أن ينهدم ، ويسيل الماء عليهم فيغرقهم ويخرب منازلهم ، فهجروا أماكنهم ، بعدها.. انفجر السد ، وطغت المياه، فأغرقت بعض الذين بقوا ونجا

البعض .. وتفرقوا فى البلاد ، وسمى ذلك السيل سيل العرم » ، وكان السامعون مصغين إلى حديث «عبدالله» ، فقال لهم: «لا ترون فى حديثى ماكنتم تتوقعونه من الأنباء المهمة ، ولكننى أردت أن أبسط لكم أصل نسب ملوك الحيرة المقيمين فى العراق ، ثم أتطرق من ذلك إلى كشف السر، فيما يتعلق «بحماد» . ولا أطيل الكلام عليكم ، فأقول باختصار إنه توالى على كرسى الحيرة بالعراق بضعة عشر ملكا ، كانوا على عبادة الأوثان ، وخالطوا الرهبان وأهل النصرانية فتنصروا ، وأول من تنصر من ملوكهم امرؤ القيس ثم الملك النعمان بن أمرىء القيس، وجاء بعده الملك «المنذر» ثم «الأسود» وتولى بعده ملوك كثيرون ، إلى آخر ملوك الحيرة «النعمان بن المنذر».

مقتل «النعمان بن المنذر»

تنهد «عبدالله» وهو يعتدل فى مجلسه واستأنف الحديث قائلا: « إن الملك النعمان هذا ، وكلكم يعرفه، يكفى فى وصفه أنه شهم شجاع صادق ، وقد أعاد النصرانية إلى الملك بعد أن أبدلها أسلافه بالوثنية ، وقد كان أبوه المنذر ملكا قبله ، وكان للمنذر اثنا عشر ولدا أحدهم النعمان وكان قد ربى فى حجر عدى بن زيد وكان من أبناء المنذر أيضا فتى اسمه «الأسود» رباه قوم من أهل الحيرة يقال لهم بنو مرينا. . فلما مات المنذر سأل كسرى عديا فيمن يلى الحيرة ، وقال له : «هل بين أولاد المنذر من يصلح للملك؟» ، قال عدى : «إنهم بضعة عشر رجلا كلهم أشداء ، فإذا أمر مولاى جئته بهم» ، قال كسرى : «إلى بهم» .. فبعث عدى يستقدمهم وفى نفسه أن يسهل سبيل الملك إلى النعمان سرا ، لأنه ربى عنده ، فخلا به قبل اجتماعهم ، وأسر إليه أشياء يقولها فى حضرة كسرى ، ففعل ، وتولى الملك ، فشق ذلك على ابن مرينا لأنه كان يرجو أن يكون الملك للأسود ، التماسا للنفوذ على يده ..

فأخذ يحرض الأسود على الانتقام من عدى فوافقه، وأسند التصرف فى ذلك إليه ، فجعل «ابن مرينا» يتقرب إلى النعمان بالهدايا والتحف،

ويشى بعدى، حتى أصغى له النعمان، فبعث إلى «عدى» يدعوه إلى زيارته ، فجاء .. وما أن وصل حتى أمر بسجنه ، فعلم عدى أنها وشاية، وأخذ يكتب إلى «النعمان» يستعطفه ، فلم يجد ذلك نفعا ..

فكتب إلى أخ له اسمه «أبى» يحضه على إنقاذه ، فذهب «أبى» إلى « كسرى» وأنبأه بخبره ، فكتب كسرى إلى «النعمان» فى إطلاقه ، فجاء أعداء «عدى» ، وحرضوا النعمان، رحمه الله، على الفتك بـ «عدى» قبل وصول كتاب « كسرى» إليه، فأرسل «النعمان» إلى «عدى» أناسا قتلوه ، فلما فض كتاب كسرى كتب إليه : «أن عديا مات» ، ولكن «النعمان» ما لبث أن عرف أنه أساء إلى «عدى» فندم ..

و هم بإكرام ورفع شأن أحد أبنائه واسمه زيد بن عدى ، تكفيرا عما فرط منه فى شأن والده ، فلم يغفل أهل الوشاية عن اطلاع «زيد» كيف قتل أبوه ، فحقد على «النعمان» وسعى ضده إلى « كسرى» بحيلة غريبة، وذلك أن الأكاسرة كانوا يبعثون نوابهم إلى البلدان التابعة لهم ، يطلبون نساء لهم على أوصاف خاصة ، ولكنهم لم يكونوا يلتمسون ذلك من أحياء العرب .. فقال «زيد» لكسرى مرة : «إن فى الحيرة نساء اجتمعت فيهن كل أوصاف الجمال ، فإذا بعثت إلى النعمان أرسل إليك منهن» .

وكان زيد يعلم أن النعمان لن يرضى بذلك ، فيقع التنافر بينه وبين كسرى ، فأنفذ كسرى رسولا ومعه زيد إلى النعمان ، فأخبره بطلب كسرى ، فعظم ذلك عليه ، فالتفت إلى زيد وقال له : «أليس بين الفرس من يفى بحاجات كسرى؟ .. إن الذى طلب كسرى ليس عندى» .

فلما رجعا إلى كسرى أخبراه بما قال النعمان ، وأقنعاه أنه أراد الحط من منزلة كسرى، فغضب كسرى غضبا شديدا ، ولكنه كتم ذلك ، وقد شعر النعمان بغضبه فأخذ يستعد ويترقب ، حتى أتاه كتاب من كسرى يستقدمه إليه ، فعلم أنه إنما يدعوه ليقتله ، فحمل سلاحه وأهله والتمس الفرار . وكنت أنا ممن لازم «النعمان»

زمانا ، وكان يستأنس بى ويرتاح إلى رفقتى ، فقال لى : «ماذا ستفعل يا عبد الله ؟» قلت : «إنى يامولاى لاحق بك أينما توجهت» ، فقال : «إن فى ذلك خطرا عليك» ، قلت : «ما أنا بأحرص على نفسى منى على نفس مولاى النعمان» ، فقال : «بورك فيك» . وسرنا وإذا بنا نلتقى بزيد وتحقق النعمان أن الساعة قد دنت ، وأن القضاء واقع لامفر منه . فقيدوه وبعثوا به إلى سجن فى خانقين، وكنت أتردد إليه فى السجن خلسة ، وأنا أرجو الإفراج عنه . أما هو فلم يكن يرجو نجاة» .

السر

وتابع «عبدالله» حديثه قائلا : «وسرت إليه ذات يوم صباحا ، فرأيته وقد تغيرت حاله وامتقع وجهه، كأنه خائف من أمر قريب ، ولا أنسى منظره الرهيب فى ذلك اليوم ، فوقفت أنتظر أمره ، فقال : «أرى أن أسر إليك أمرا ، فهل تعاهدنى على حفظه ؟» .

قلت : «كيف لا .. ؟!» .

فمد يده وأعطانى هذا الرداء المزركش (قال عبدالله ذلك ونزع الرداء عن كتفيه ووضعه أمامه) فأخذته منه ، ثم استخرج من يده خاتما عليه اسمه ولقبه وهو هذا» ، (ومد عبدالله يده واستخرج الخاتم من جيبه ووضعه على الرداء) .

وكان «عبدالله» قد اختنق صوته وهو يقول : «فلما تناولت الخاتم قال لى «النعمان» : «اعلم يا عبدالله أنى فى هذا السجن حتى ينقضى أجلى ، فيخرج ملك الحيرة من أيدى اللخميين ، لأن زيد بن عدى هذا سيبذل جهده فى إذلالهم ، ولا أعرف من أولادى من يرفع هذا العار عنا ، ولكن بين أهلى عند هانىء بن مسعود زوجتى «سمية» ، وهى حامل وستلد قريبا ، فاذهب إليها بهذا الخاتم وهذا الرداء ، وقل لها إن هى وضعت غلاما أن تعهد إليك بتربيته ، فتربيه تربية رجال القتال حتى يشب شهما حرا ، واحذر أن تقص شعره أو تخبره بنسبه قبل الحادية والعشرين من عمره ، فإذا بلغها قص شعره فى دير بحيراء، وأخبره بنسبه ، وألبسه هذا الرداء وهذا الخاتم ...» .

ولم يكد يتم «عبدالله» كلامه حتى استولت البغتة على الحضور، وخصوصا «حمادا» ، إذ خيل له أنه فى حلم ، فلما وصل إلى هذا الحد تحققوا أن «حمادا» هو ابن الملك «النعمان» ، فجعلوا ينظرون إليه نظرة الاحترام . أما «عبدالله» فحالما بلغ إلى قوله : «ألبسه هذا الرداء وهذا الخاتم» وقف على قدميه وجعل الرداء على كتفى «حماد» والخاتم فى أصبعه ، وأمسكه بيده وأنهضه وأجلسه على المقعد الحجرى ، وهم بتقبيل يده ، فخجل «حماد» وجذب يده منه . فقال له «عبدالله» : «لا تخجل يامولاى ، إنك الآن سيدى ابن الملك «النعمان» ، وقد انقضى زمن أبوة عبدالله» . فجلس «حماد» على المقعد ، وجلس «عبدالله» بين يديه ، وهم «سلمان» بيد «حماد» فقبلها .

أما الراهب فإنه على عجزه وقف ورفع يده فوق رأس «حماد» وباركه، ودعا له بطول البقاء ، وقبل رأسه .. كل ذلك و«حماد» يحسب نفسه فى حلم ، ولكنه فرح كثيرا بما علمه من نسبه ، وود لو أن «هند» حاضرة فتسمع ذلك فتفرح معه ، وخيل له أن سعده قد تم لأنه ملك وسيقترن بملكة ويرث ملك غسان . وبينما هو يفكر فى ذلك إذ نهض «عبدالله» فقال : «لم يتم حديثى بعد .. فهل تسمعونه إلى آخره ؟» ..

قالوا : «نعم» .

فمد يده إلى جيبه واستخرج أسطوانة من الفضة فى حجم الأصبع ، وخاطب «حمادا» قائلا : «وقد أعطانى مولاى النعمان هذه الأسطوانة ، واستحلفنى أن أسلمها إليك مختومة ، فتفتحها فى هذا الدير ، وتقرأ مافيها وتعمل به» .

فمد «حماد» يده فتناول الأسطوانة وأراد فتحها ، فأمسكه «عبدالله» وقال : «لا تفعل قبل إتمام الحديث» .

قال : «تفضل» .

فقال عبدالله : «فلما أتم النعمان وصيته بكى وبكيت ، وقال :

اعلم يا عبدالله أن القضاء واقع قريبا ، فاحتفظ بهذا السر حتى يأتى وقته ، أما إذا أنا خرجت من هذا السجن وعشت .. فللمسألة وجه آخر . وللأسف يا سيدي أنه لم يخرج من ذلك السجن ، فوافاه القدر فتوفي بداء الطاعون قال عبدالله ذلك وتنهد ، والدموع ملء عينيه ، ثم قال : «أما أنا فسرت إلي هانئ ولقيت والدتك «سمية» وكانت حاملا .. فصارحتها بما كان ، فأذعنت للأمر الواقع وانتظرت ريثما وضعت .. ولكنها وأسفاه عليها لم تعش بعد الولادة إلا قليلا ، فحملتك إلي أهلي وأرضعتك بينهم حتي شببت علي ما ترى » .

وقعة «ذى قار»

وكان «حماد» قد مل الانتظار شوقا إلي ما فى تلك الاسطوانة، فلما فرغ «عبد الله» من حديثه نهض ، وقال لحماد : «إلى يا مولاى بالأسطوانة» فدفعها إليه ، وتناول عبد الله الأسطوانة وعالجها بمدية حتى انفتحت ، ونظر إلى ما فى الأسطوانة، فإذا فيها لفافة من جلد ، فاستخرجها ، فرأى عليها كتابة بالأحرف «الأسطرنجيلية» وهى كتابة أهل العراق فى ذلك الحين . فأخذ «عبد الله» يتلوها عليهم وهم يسمعون : « من «النعمان» إلي ابنه «المنذر» . أما بعد فهذا كتاب كتبته وأنا فى عالم الوجود وأنت فى دار الخفاء .. وستقرؤه بعد رجوعى إلى عالم الغيب وظهورك فى عالم الأحياء . فإذا قرأته وقد وفيت بنذرك وعرفت حقيقة نسبك، فاعلم أن عظامي تناديك من ظلمة القبر، وتستحلفك بشرف أجدادك ألا تقرب امرأة ولا تشرب خمرا حتى تنتقم لأبيك من أكاسرة الفرس ، فإذا فعلت ذلك فإنك مبارك أنت ونسلك .. وأن لم تفعل فإن رفاتى ترتعش حنقا ، ونفسى تتألم وهى تنظر إليك من منافذ الآخرة تراقب حركاتك .. والسلام » ..

فلم يكد عبد الله يأتى على خاتمة الكتاب حتى ارتعدت فرائص حماد ، وقد رأى مساعيه كلها ذاهبة أدراج الرياح .. على أن الحمية ثارت فيه والنخوة هاجت فى رأسه .. وشعر بدافع يدفعه إلى الأخذ بثأر والده من أكاسرة الفرس ، وقد استعظم المشروع ، وهاله الإقدام عليه ، فوقف مبهوتا لا ينبس ببنت شفة .

فنظر «عبد الله» إلى «حماد» يتطلع إلى ما يبدو منه .. فلما رآه صامتا قال له : «هذا هو السر يا سيدى قد أطلعتك عليه ، فألقيت عن عاتقى حملا حملته نيفا وعشرين عاما ، وكنت أخشى أن أقضى نحبى قبل إفشائه» .

فقال «حماد» : «لقد ألقيت عنك حملا أثقلتني به ، وأرجو أن أوفق للقيام بما عهد إلى» . قال ذلك وتحفز للخروج من الصومعة ، فأوقفه «عبد الله» والتمس من الراهب أن يختتم حديثهم بالصلاة ، ثم خرجوا ، وأكثرهم بغتة وذهولا «حماد» لأنه أصبح لا يدرى ماذا يعمل، أيسير إلى «هند» يطلعها على سره ، وهذا السر يحول بينهما وبين الزواج إلى أجل غير معين ، وإن يكن فى إطلاعها على حقيقة نسب «حماد» أمر يسرها ، أم يخاطب «جبلة» فى الأمر لعله يشير عليه أو ينجده ، أم يؤم العراق فينزل «المدائن» ساعيا فى الانتقام من كسرى ، فلما فكر فى مسيره إلى هناك تهيب ، لعلمه بما يحول بينه وبين ذلك من العقبات ، فإن الأكاسرة ذوو بطش . فسار إلى الدير وقضى ليله ساهرا لعظم تأثره ، وهو يفكر فى طريقة تهون عليه هذه المشاكل ...

انس ام جن ؟!

وظل حماد فى دير بحيراء غارقا فى الأفكار تتقاذفه الرغبات بين المسير إلى العراق وإلى البلقاء ، وكلا الأمرين شاق ، فكلما تصور مسيره إلى مدائن كسرى، هاله وقوفه موقف الخصم أمام ملك الفرس ، وعظم عليه الانتقام منه ، وهو فرد وذاك سلطان ينصره الجند والأعوان.. فلما تكاثرت عليه المشاغل وضاق صدره ، خرج من غرفته ولم يعلم «عبد الله» ولا «سلمان» بخروجه ، وسار يلتمس مكانا يخلو فيه بنفسه لعله يوفق إلى رأى يخفف قلقه . وكانت الشمس قد مالت إلى الأصيل ، فلاحت له تلال على بضعة أميال منه ، فركب وسار نحوها ، وفيما هو فى الطريق غاب وجدانه بما اجتذب انتباهه من الشواغل ، فسار الجواد و «حماد» لا يعلم ، فلم ينتبه إلا وهو فى سفح

جبل ، فالتفت إلى الوراء ، فإذا ببصرى والدير قد غابا عن بصره .. ونظر إلى الشمس فرآها مائلة نحو المغيب ، فوقف يفكر ماذا يفعل ، أيعود إلى بصرى أم يجلس هناك هنيهة ؟ ، فنظر إلى ما حوله ، فوجد نفسه فى واد بين جبلين ، فنزل من فوق جواده يلتمس قمة أحد الجبلين ، لعله يشرف منها على «بصرى» فيعرف جهتها منه ، وفيما هو صاعد حانت منه التفاتة إلى الجبل المقابل فرأى كهفا نحتته الطبيعة فى سفح ذلك الجبل ، ولاح له شبح يتلصص بين الصخور ، هيئته بين الآدمية والوحشية لطول شعره . فوقف «حماد» ينظر إلى ما يبدو منه ، فما لبث أن رآه يهرول نحو الكهف حتى دخله وتوارى .

فمال «حماد» إلى استطلاع حقيقة ذلك الشبح ، وتحول نحو الكهف يقود الفرس ، وهو لا يسمع فى ذلك المكان صوتا غير صوت وقع أقدامه . فنزل الوادى ، ثم هم بالصعود حتى إذا صار على مقربة من الكهف رأى صخرا يتدحرج نازلا نحوه ، فتحول عن طريقه ، وعلم أنه إنما دحرج من الكهف عليه عمدا ، فلم يبال .. وازداد ميلا إلى معرفة حقيقة ذلك الشبح ، فما زال صاعدا حتى دنا من الكهف ، فإذا بصخر آخر يتدحرج ، فنادى بأعلى صوته : «لا ترمنا بالحجارة ، فلسنا براجعين من هذا المكان قبل الوصول إليك» ، فردد الوادى صدى كلامه، فتهيب من موقفه ، وزاده تهيبا قرب غروب الشمس واختلاط الظلال حتى كادت تتحول إلى ظلام، فشعر إذ ذاك أنه أساء التصرف بمجيئه إلى ذلك المكان الوعر ، ولكنه ما لبث أن وصل إلى باب الكهف، فظهرت له مغارة لا يرى آخرها لعمقها ، ولا يستطيع الدخول إليها والفرس معه .. فوقف وحدق ببصره إلى الداخل لعله يرى أحدا ، فلم يقع نظره على شئ ، فصاح قائلا : «فليخرج إلينا من يقيم فى هذا الكهف لأننا غير متحولين عنه قبل أن نراه ، ولا خوف عليه» .

قال ذلك وهو يكاد يرتعش رهبة لسكون الطبيعة ، فرأى «حماد» أن يشد الجواد إلى صخرة، ويدخل المغارة بنفسه ، وفيما هو يهم

بذلك ظهر له شبح خارج من ظلمة ذلك الكهف ، فوقف «حماد» متحفزاً ، حتى وصل ذلك الشبح إليه ، فإذا هو رجل عار يكسوه شعر رأسه المسترسل إلى قدميه ، وقد تمكن فيه الشيب فابيض ، على أن الكبـــر لم يغير شيئا من اعتدال قامته ورشاقة حركته وحدة بصره ، وأن يكن جلد وجهه قد تجعد ، وشعر حاجبيه وشاربه قد طال ، وطالت أظافر يديه ورجليه .

فلم يكد يقع نظر «حماد» عليه حتى هاب منظره ، ولو لم ير فى يده صليبا كبيرا لخيل له أنه من مردة الجان ، ولكنه أدرك لأول وهلة أن الرجل ناسك من نساك تلك الأيام ، انقطع عن العالم، وأوى إلى الكهوف التماسا للعبادة ، وكان قد سمع بكرامة هؤلاء وصدق نظرهم فى عواقب الأمور ، فلاح له أن يخاطبه فيما هو فيه، ويستشيره فى أمره، فتقدم نحوه باحترام وأراد تقبيل الصليب الذى فى يده ، فأدناه من فمه وقبله ، ثم خاطب الناسك قائلا : «ألعلك ناسك مقيم فى هذا المكان ؟» فأومأ إليه الناسك برأسه أن «نعم» فقال حماد : «هل تأذن لى بمحادثة أبثك فيها بعض ما فى نفسى على سبيل الاعتراف ، فتشير على بما يوحى إليه الروح القدس ؟» .

فأجاب الناسك بالإشارة أنه لا يستطيع الكلام الآن ، لأن من شروط نسكه أن يصمت أسبوعا وينطق أسبوعا ، وأن آخر أسبوع الصمت ينتهى الليلة ، فإذا جاء فى غد خاطبه . فسر «حماد» بتأجيل المقابلة ، فقال له : «ألا آتى إليك معى بطعام أو نحوه من بصرى ؟» ، فأجاب بالإيماء «لا» لأنه من النساك الذين يعيشون على عشب الأرض .

فقال له : «ولكننى أرى الأرض هنا مجدبة لا عشب فيها» .

فأشار الناسك بيده إلى مكان وراء ذلك الجبل فيه مرعى .

فسأله عن سبب رميه بالحجارة وهو صاعد . فأجابه لعلمه أنه لا يستطيع مخاطبته قبل انقضاء أسبوع الصمت .

فقال «حماد» : «وأين الطريق إلى دير بحيراء ؟» . فدله على طريق

سهل غير الذى جاء منه ، فودعه وقبل الصليب ، ثم ركب جواده وسار قاصدا الدير ، فرأى «عبد الله» و «سـلمان» ينتظرانه فى الغرفة، وقد قلقا لغيابه على غير موعد . فقال له «عبد الله» : «لقد شغلت بالنا بغيابك » ...

فلم يشأ «حماد» إطلاعهما على ما اتفق له فى ذلك اليوم ، رغبة منه فى كتمانه ريثما يسمع كلام الناسك ، فيطلعهم على الحكاية كلها...

فقال «عبد الله» : «وما الذى حملك على الركوب منفردا؟»

فقال : «خرجت للترويح عن النفس» .

فأدرك «عبد الله» حاله تماما ، ولم يشأ أن يثبط عزيمته ولا أن يزيد قلقه ، فقال له : «أرى سيدى فى اهتمام وقلق ، وليس فى الأمر ما يدعو إلى ذلك ، ولا نحن فى سرعة أو ضجر» .

فظل «حماد» صامتا ، فأدرك «سلمان» أن فى نفس «حماد» كلاما ربما لا يريد التصريح به على مسمع منه ، فتظاهر بأمر يهمه وخرج تاركاً الغرفة. فلما خلا عبد الله وحماد ، قال عبد الله : «ما بال سيدى لا يبوح بسره ؟ ألست شريكك فى أمرك ؟» .

قال : «بل ، أنت بمنزلة والدى ، ولا أخفى عنك شيئاً ، فإنى فى قلق وارتباك ، وأرانى فى حاجة إلى من يفرج كربتى برأى أو مشورة » .

فقال عبد الله : «هلم بنا إلى الراهب الشيخ الذى شاركنا فى سرنا ، لعله يشير علينا بما يفرج كربتنا» .

قال «حماد» : «هلم بنا إليه» .

وخرجا حتى بلغا غرفته فدخلا عليه .. وكان متكئا فجلس ورحب بهما ، فجلسا ، ثم قال عبد الله : «إنك يا مولاى شريكنا فى سرنا وعالم بما فى ضميرنا ، فهل تشير علينا بما يخفف عنا» ...

فقال الراهب : «إن المسألة فى غاية الدقة والمشقة ، وقد أدركت خطرها منذ سمعتها ، ولا أدرى بماذا أشير ؟» ، قال ذلك وسكت برهة يفكر ، ثم هب من مجلسه بغتة وقال : «أرى أن تذهبا إلى ناسك

حوران ، فإنه يقيم فى كهف على مقربة من هذا المكان ، فعساه أن يشير عليكما مشورة خير » .

فبغت «حماد» عند سماعه ذلك ، وقال : «هل تظنه قادرا على ذلك ؟» .

قال : «نعم يا سيدى ، إنه أوتى علما وكرامة ، فلا تخلو مشورته من فائدة » .

فقال عبد الله لحماد : «هل عرفته قبل الآن» .

فقال : «أعترف لك أنى وصلت إليه اليوم بطريق المصادفة ، وخاطبته فأجابنى بإشارة يديه أنه لا يستطيع الكلام إلا فى صباح الغد، لأنه نذر السكوت أسبوعاً» .

فقال عبد الله : «فلنذهب إليه غدا إن شاء الله » .

ناسك حوران

وفى الغد ، قال حماد لعبد الله : «ألا نصطحب سلمان فى مسيرنا إلى الناسك ؟» .

قال عبد الله : «لا أرى ما يمنع ذلك ، ولا أخالنا نستغنى عنه ، ولا يليق بنا وقد صحبناه أعواما خدمنا فيها خدمات جمة أن نخفى عنه أمرا نقوم به » .

قال حماد : «ذلك ما أراه» ، وبعثا إليه فصحبهما ، وخرجوا فى الصباح على جيادهم ، و«حماد» دليلهم حتى اقتربوا من الجبل وأطلوا على الكهف ، فقال حماد : «هذا هو الكهف ، وكأنى أرى الناسك فى انتظارنا عند بابه» .

فنظر «عبد الله » حتى إذا وقع بصره على الناسك تهيب من منظره، وصعدوا فلما دنوا من الكهف استعد الناسك لملاقاتهم ، وكانوا قد مشوا نحوه ، فقال : «أهلا بكم ومرحبا» وأخذ يتفرس فيهم .

فقال حماد : «مرحبا بك أيها المتعبد التقى ، لقد جئناك عملا بوعدك ، وهذا والدى (وأشار إلى عبد الله) وهذا صديقى » ، (وأشار إلى سلمان) .

وتقدموا جميعا و «عبد الله» ينظر إلى وجه الناسك كأنه يعرف وجها مثله..

وكان الناسك مشتغلا بإعداد أحجار يجلسون عليها ، وهو يخطر أمامهم عاريا ، فغلب عليهم الحياء ، فلم يستطيعوا النظر إليه إلا خلسة.

ثم تقدموا إليه وقبلوا يده ، فباركهم وجلسوا أما هو فجثا على التراب ، وجمع شعر رأسه ولحيته فى صدره إلى حجره ، وأخذ يرحب بهم ويعتذر لعدم إمكانه القيام بحق ضيافتهم .

فقال عبد الله : «لقد جئناك نلتمس بركة لا ترحابا ، فقد بلغنا أنك من رجال الله المختارين » ، قال ذلك وهو يدقق النظر فيه لعله يذكر الوجه الذى يشبهه ..

فقال الناسك : «إنى أحقر عباد الله ، فأشكر لكم حسن ظنكم بى ، وما تكبدتموه من المشقة فى زيارتى ، فأبسطوا ما فى أنفسكم لعلى أستطيع بمشيئة الله أن أخدمكم » .

فقال عبد الله : جئنا لنطلعك على سر لم يطلع عليه أحد سوانا نحن وراهب مقيم فى دير بحيراء ، والسر ذو خطر يستلزم إصغاء وكتماناً فقال الناسك : «قل يا ولدى ولا تخف» .

فقال عبدالله : «يظهر لى أنك من أهل العراق» .

قال الناسك : «لقد أصبت ، نعم إنى من أولئك .. وما الذى دلك على ذلك ؟» .

قال : «دلنى عليه ملامح وجهك ونوع تعبدك ، فقد قيل لى أنك من النساك الرعاة ، وهم كثيرون فى العراق» .

قال الناسك : «إنى يا ولدى كما قلت» ..

قال عبد الله : «أما والحالة هذه فقل لى ، هل تعرف الملك النعمان بن المنذر؟» .

فلم يكد عبد الله ينطق باسم النعمان حتى ظهرت البغتة على وجه الناسك ، وبرقت عيناه ، وأجاب وهو يحدق بعينيه : «نعم أعرفه» .

فعجب عبد الله لتلك المظاهر ، ولكنه تجاهل وقال : «هل تعرفه معرفة جيدة أو تسمع باسمه وأخباره» .

فقال الناسك ، ويده فى لحيته يمشطها بأصابعه : «بل أعرفه كما تعرف ولدك هذا» ..

قال ذلك بصوت مختنق حتى خيل لهم أنه يبكى .

فقال عبد الله : «أراك يا سيدى قد اهتممت لحكايتنا من أول كلمة قلناها» ..

فتنهد الناسك ويده إلى عينيه يمسح بها دموعه وقال : «إن ذكرى الملك النعمان تهيج أشجانى وتفتت كبدى ، فهل يهمكم من أمره ما همنى ، أو جاء ذلك على لسانكم عرضا ؟» .

قال عبد الله : «بل هو محور حكايتنا ومرجع سرنا رحمه الله» .

وكان حماد وسلمان شاخصين يعجبان لما يبدو من الناسك ، وعبد الله يزداد استئناسا بطلعته ..

فقال الناسك : «قل ما تقوله عن النعمان، إنى أرتاح إلى ذكره ، ولكننى أتأسف لتذكرى عاقبة أمره» .

فقال عبد الله : «إذا كان النعمان يهمك إلى هذا الحد ، فانظر إلى هذا الشاب وقل لنا هل تعرفه ؟» ، (وأشار إلى حماد) .

فمسح الناسك عينيه ونظر إلى حماد وجعل يتفرس فيه ، ولم يكد يتأمله حتى صاح بأعلى صوته : «إنه ابن النعمان لا شك » ، وهم به وضمه وأخذ يقبله ..

فخفقت قلوبهم وبكوا جميعا ، والناسك يضم حمادا إلى صدره يقبله ويبكى ، فازداد «عبد الله» استغرابا للأمر ، وقال للناسك : «لقد أذهلتنا بما بدا منك ، فكيف تقول إنه ابن النعمان وقد كان أشقر أحمر وهذا أسمر أدعج» .

قال : «لا عبرة بذلك ، فإن ملامح النعمان قد تمثلت فيه ، وهو الرجل الذى انقطعت إلى هذه الجبال من أجله» .

فبهتوا لهذا القول ، فأراد عبد الله أن يستطلع حقيقة الخبر فقال : «وهل تعرف الذى يكلمك ؟» .

فنظر إلى «عبد الله» نظر المتأمل وقال : «ألعلك صديق الملك النعمان وشريكه فى مصابه «شمعون الحيرى ..؟!» ، وكان هذا اسم عبد الله المعروف به إذ ذاك .

فذهلوا جميعا وخصوصاً «عبد الله» ، فإنه أعاد نظره إلى الناسك وقال: «أما وقد علمنا أنك شريكنا فى الأمر ، فأخبرنا من أنت وفرج كربتنا..» ..

وقال الناسك : «أما أنا فإنى القس الذى عاد النعمان إلى النصرانية على يده، بعد أن كان أسلافه قد نبذوها وعادوا إلى الوثنية أو المجوسية ديانة الفرس» .

فانتبه «عبد الله» من غفلته كأنه أفاق من نوم وقال : «ألعلك القس يعقوب ؟» .

قال: «نعم، وقد كنت مقيما فى دير هند الكبرى، المنسوب إلى هند بنت الحارث بن عمر بن حجر ، وكانت «هند» هذه كما تعلمون قد ترهبنت فيه فسمى باسمها ، ولكننى كنت أتردد على النعمان كثيرا ويطلعنى على أسراره ، حتى كان ما كان من أمر سجنه فى خانقين ، فغادرت الحيرة وسرت إليه وجعلت أتردد عليه فى السجن . ألا تذكر أنك كنت ترانى هناك ؟» .

قال عبد الله : «أذكر ذلك جيداً ، ثم هم «عبد الله» به وتعانقا وهما يبكيان ، أما الناسك فتحول نحو «حماد» وضمه وجعل يقبله ويبكى وهو يقول : «أحمد الله على أنى رأيتك قبل موتى» .

ولبثوا برهة صامتين وكل يبكى ويمسح دموعه .

ثم قال عبد الله : «أقصص علينا بقية الخبر يا حضرة القس المحترم» ..

قال : «كنت أتردد على النعمان فى السجن أصلى له وأباركه وأدعو له ، وكان كلما اجتمعت به يقول والاهتمام ظاهر على وجهه : «لدى سر سأطلعك عليه فى فرصة أخرى» ، فاهتممت لمعرفة ذلك

السر .. وكنت أتوقع سماعه فى كل زيارة وهو يؤجله ، وكنت كلما سرت إليه رأيتك وعجبت لشهامتك وغيرتك عليه .. فسألته عنك يوما فقال إنك مستودع أسراره ، وأنه يثق بك ثقة تامة . ومازلت أقوم بزيارته حتى أصيب بمرض ظنوه الطاعون ولا أظنه أياه . فزرته ولم تكن أنت ساعتئذ هناك ، فقال لى : «أرانى لن أشفى من مرضى هذا ، ولعل الموت سيعاجلنى ، وأخاف ألا أملك فرصة أخاطبك فيها . فقلت : «قل يا سيدى ، ولعل الله شافيك .. ثم بكى وبكيت» ، قال الناسك ذلك وخنقته العبرات ، والجميع سكوت يصغون ويحدقون بأبصارهم فى شفتيه وهما ترتجفان من شدة التأثر. سكت الناسك برهة ريثما يسترجع قواه ، ثم قال : «فأمسكنى النعمان رحمه الله بيدى ، وأدنانى منه ، وأسر إلى أمرا خطيرا قال إنه أسره إليك ، ولا أدرى هل يجوز لى التلفظ به وهو سر ؟» .

فقال عبد الله : «لقد قلت إنى عارف به ، فلم يعد سرا ، وقد أطلعت ابنه ورفيقنا هذا عليه » .

فقال الناسك : «أما والحال على ما تقول فأخبركم أنه أدنانى منه ، وقال : «إنى سأقضى نحبى هنا ظلما من قوم لا يعرفون الله ولا يشفقون على إنسان ، وسأترك أهلى وأولادى بدون أن أراهم وأودعهم ، وإنى عالم أن سلطان الحيرة سيخرج من بنى لخم بعد موتى ، فأسررت إلى شمعون أن يربى ولدا لى لم يولد بعد وأن يكتم نسبه عنه حتى يبلغ العشرين من عمره ، فيقص شعره فى دير بحيراء ، ثم يطلعه على حقيقة نسبه» . وقال لى : «وأعترف لك أنى حرضته على أن ينتقم لى من دولة الفرس» . وأكمل الناسك : «فلما سمعت كلامه اقشعر بدنى ، وقلت : «يا سيدى الملك أراك تستعجل الأجل ، وليس ما يدعو إلى قربه ، وأما الانتقام فاتركه إلى الله سبحانه وتعالى . فأجابنى والدموع تخنقه : لقد قضى الأمر يا أبتاه ، وعهدت إليه بذلك ، ولا أرى الرجوع عنه ، والله يقضى بما يشاء » . قال النعمان ذلك واختلج صوته ، ثم غاب صوابه ، وفيما نحن فى ذلك جاء السجان يشدد

النكير على من يدخل إلى النعمان ، فخرجت ولم أعد أراه ، ثم ما لبثت أن سمعت أنه مات، فلما سمعت ذلك كرهت الدنيا وزهدت فيها ، فالتجأت إلى النسك، واخترت منه أكثره زهدا وهو هذا الذى أنا فيه ، أعيش على نبات الأرض وأمكث عاريا كما ترون ، وكنت مقيما فى العراق مع رفاق كثيرين من الرهبان ، وذكر النعمان لم يبرح من ذهنى يوما واحدا ، ومازلت أردد كلماته الأخيرة . فأحببت الاطلاع على ما فعلته أنت من هذا القبيل ، فلم أعرف أين أنت .. ولما مضت بضع عشرة سنة من وفاته ولم أرك ولا عرفت مقرك ، قلت لعلك تقيم فى البلقاء بالقرب من دير بحيراء لأجل وفاء النذر عند حلول الميعاد .. فجئت وأقمت فى هذا الكهف، وفى نفسى شئ أريد أن أطلعك عليه ، فلم أسمع عنكم خبرا ، فضلا عن أنى لم أكن أعرف اسمك الجديد» .

أنذر القاتل بالقتل

قال عبدالله : «وما الذى فى نفسك وتريد أن تطلعنى عليه ؟ قل» ..

قال : «هو خبر يتعلق بوصية النعمان لك ولابنه ، فاحك لى ما تم معك من قبيل النذر : هل وفيت به ، وأطلعت هذا الملك على حقيقة نسبه ؟» ..

قال عبدالله : «نعم يا مولاى ، لقد وفينا بالنذر بعد ميعاده» ، وحكى له القصة من أولها إلى آخرها حتى أتى على سبب مجيئهم إليه ، فقال : «وقد جئنا إليك لعظم ما قام فى نفس مولانا الملك من الاهتمام بأمر الانتقام ، فقلنا نطلع ناسك حوران على هذا السر ، لعله يشير علينا مشورة تخفف ما بنا ، أو تهدينا سبيلا» ..

فقال الناسك : «لقد وقعتم على خبير ، وان فى بقية قصتى ما يفرج عنكم كل كرب إن شاء الله» .

فاستبشر عبدالله وحماد وسلمان بانفراج الأزمة .. فقال عبدالله : «أخبرنا ببقية قصتك ، بورك فيك» .

قال : « كنت لفرط اهتمامى بأمر الملك النعمان وأمر وصيته وما

تضمنته من الحث على الانتقام ، لا أبرح أفكر فى هذا الأمر نهارا وأحلم به ليلا ، حتى استيقظت ذات صباح والناس يتحدثون بأمر كسرى أبرويز قاتل النعمان ، وأن ابنه شيرويه تآمر عليه وسجنه ، فقلت فى نفسى : هذه عاقبة القوم الظالمين . ثم ما لبثت أن سمعت بأنه قتله، فاعتبرت بحكمة الله سبحانه وتعالى ، وشعرت براحة ، فرأيت فى منامى كأن الملك النعمان قادم إلى بلباس ناصع البياض ووجه منير باسم ، فخشعت لرؤيته على هذه الصورة ، ثم سمعته يقول : «لا تعجب يا يعقوب لمقتل أبرويز المجوسى ، فقد أعد الله له ما هو أعظم من ذلك ليعتبر القوم الظالمون» .

فقلت ، وقد بهرنى نور وجهه : «وماذا عسى أن يكون أعظم من الموت قتلا بسيف البنين ؟»

فقال لى : «سوف ترى وكل آت قريب» فرفعت نظرى لأراه فغاب عن بصرى ، واستيقظت من نومى مذعورا ، ولم تمض بضع سنوات حتى وقع ما وقع فى سلالة أبرويز .. هل تدرون ما هو ؟» ..

قال عبدالله : «وماذا تعنى ؟»

قال « كان لأبرويز ثمانية عشر ولدا، كلهم ذوو أدب وشجاعة، منهم شيرويه الذي تولي الملك بعده، فوشي رجل اسمه فيروز لشيرويه علي إخوته السبعة عشر، فأمر بقتلهم جميعا، ولكن شيرويه لم يهدأ له بال بعد عمله هذا ، فبكى بكاء مرا ورمى بالتاج عن رأسه ولم يزل بقية أيامه مهموما، ولاقى المصائب الكبرى ، وفى جملتها طاعون انتشر فى بلاده فأباد الكثيرين من أهل بيته، وأخيرا مات وهو كئيب حزين ، فهل ثمة أشد وطأة من هذا الانتقام ؟ وزارنى الملك النعمان بعد هذه الحوادث فى المنام وهو يضحك ، وأمارات البشر ظاهرة على وجهه، فهممت بالوقوف للقائه ، فشعرت بنفسى ثقيلا لا أستطيع النهوض ، فابتدرنى هو قائلا : «لقد انتقم لى الله من أبرويز المجوسى ، فطابت نفسى ، وأرى وصيتى لولدى حملا ثقيلا على عاتقه ، قال ذلك وتوارى عن بصرى ، وأنا راقد لا أستطيع حراكا، ثم استيقظت وصورة النعمان أمام عينى» .

فلما بلغ الناسك إلى هذا الحد من حكايته ، شعر كل من السامعين بانفراج الأزمة، ولاسيما حماد ، فإنه أحس بحمل ثقيل تزحزح عن صدره .

أما «سلمان» فكان إلى ذلك الحين صامتا لم يفه بكلمة ، فلما فرغ الناسك من كلامه، وقف «سلمان» وهم بيد الناسك فقبلها وقال : «لقد أتيتنا فرجا من عند الله .. ولكن نفوسنا لا تهدأ إلا بعمل نعمله لقهر أولئك الكفرة الغاشمين» ..

فنظر الناسك إليه ، وتبسم ، وقال : «ذلك صنع الله يا ولدى وستسمع بذهاب دولة الفرس قريبا ، فلا يبقى ثمة من تنتقمون منه» ..

فلم يفهموا مغزى كلامه ، فقال عبدالله : «هل تعنى شيئا معينا أوحى إليك به ، فإنكم معشر النساك ذوو كرامة» ..

قال الناسك : «أشير إلى أمر لا يحتاج إلى وحى أو كرامة ، بل هو ظاهر يفهمه كل عاقل .. ألا ترى حال الفرس واختلال شئونهم واضطراب أحوالهم حتى توالى على كرسى ملكهم خمسة ملوك فى خمس سنين، وكل يعمل على الاستئثار بالسلطة وإبادة الآخرين ، وأضعفهم «يزدجرد» الذى يتولى الملك الآن وستزول دولة الفرس على يده .. ألا يدلكم ذلك على شيخوخة دولتهم وقرب انقضاء أجلها ، وللدول آجال كآجال الناس تمر فى أدوار تنتهى بالموت ، ودولة الفرس قد بلغت شيخوختها ولا تلبث أن تنقضى بالموت».

قال عبدالله : «ولكن لا تنقضى إلا على يد دولة أخرى تقوم مقامها ، فمن يخلف هاتين الدولتين ؟» ، قال : «أما سمعتم برؤيا الراهب بحيراء الذى كان يقيم فى ديره هنا ؟».

فتذكر «حماد» ما سمعه من الراهب الشيخ فى تلك الصومعة يوم جاءها لملاقاة «هند» هناك . فقال : «بل سمعت ذلك من الراهب الشيخ ، فقد حكى لى مرة أن بحيراء رأى فى منامه فتى جميل المنظر مولده برج الثور والزهرة مع قران المشترى وزحل، وعلم منه أنه هو الذى سيهدى أبناء جلدته بنى إسماعيل (وهم العرب) إلى معرفة الله ،

وبه يقوى أمرهم ويشتد أزرهم ، أليس ذلك ما تعنيه ؟».

قال الناسك : «هذا ما عنيته ، وأزيد عليه أن الرجل المنتظر قد ظهر فى جزيرة العرب ، ودعا الناس فيها إلى عبادة الله ونبذ الأوثان ، وقد فتح مكة وكسر أصنام الكعبة ، وانتشر سلطانه فى الحجاز واليمن ، وسيفتح الشام والعراق ، وهو الذى سيخلف الفرس والروم فى سلطانهما» .

فقال حماد : «لقد شاهدنا قوته وسلطانه بأعيننا يوم فتح مكة ، وكان يوما مشهودا .. ويظهر من رغبته للهداية فى سبيل الله وتفانى أنصاره وأصحابه فى نصرته أن دولته ستغلب الدول كلها إن عاجلا أو آجلا» ..

قال الناسك : «فليس ثمة إذن ما يدعو إلى التفكير فى الانتقام من أكاسرة الفرس . وقد رأيتم أن قاتل حبيبنا النعمان قتل هو وأولاده شر قتلة ، وسيقضى العرب على دولتهم إن شاء الله» .

فوقع كلام الناسك على قلب «حماد» بردا وسلاما ، فارتاح باله من أمر الانتقام العاجل ، وانصرف فكره إلى «هند» وشعر بميل شديد إلى رؤيتها ، وخشى أن تسئ الظن به إذا طال غيابه ، فتظاهر بميله إلى الانصراف ، فأدرك «عبدالله» ذلك ، فقال للناسك : «أتأذن لنا فى الذهاب ، على أن نغتنم الفرص لزيارتك حينا بعد حين ؟ وهل تطلب منا أمرا نقضيه لك ؟» .

قال : «لا أريد من هذا العالم شيئا ، فقد رأيتم زهدى فيه ، ولم يكن فى نفسى شئ غير رؤية ابن حبيبى «النعمان» لأقص عليه ما ائتمنت عليه مما خاطبنى به والده فى الحلم ، فأحمد الله على تحقيق أمنيتى» ..

فقال عبدالله: «أطال الله بقاءك ونرجو أن نراك مرارا»، قال ذلك ونهض ، فنهضوا جميعا وودعوا الناسك ، وانصرفوا .

أما «حماد» فإن ذهنه تفرغ للتفكير فى «هند» وأحس برغبة فى إطلاعها على حقيقة نسبه ، فلما وصلوا إلى الدير مروا بغرفة الراهب

الشيخ ، فدخلوها ليطلعوه على ما دار بينهم وبين الناسك ، فقال : «لقد خيل لى منذ رأيت هذا الناسك أنه لم يغادر العراق ليقيم فى هذه الجبال المجدبة إلا لباعث دفعه إلى ذلك ، وقد صدق ظنى ، ويسرنى أنه أطلعكم على ما خفف قلقكم . أما ما قاله عن قوة المسلمين وعظم دولتهم حتى يخشى على الروم والفرس منهم ، فقد أيدته الحوادث الجارية ، فإن تلك الطائفة من الحجازيين لم يكادوا يقومون بدعوتهم حتى ملأوا جزيرة العرب فتحا ، فدانت لهم قبائل اليمن وعمان واليمامة ونجد ، وقد شهد حماد وسلمان فتح مكة ورأيا هؤلاء العرب وقوتهم واتحادهم .. ولقد شهد من رأى حروبهم أنهم كافحوا كفاح الأسود وصبروا على الحرب صبر الرجال .. ولكن فى أول مرة لاقوا جند الروم ، ولم يكونوا فى عدة كافية ، فلم يفوزوا .. والظاهر أن موقعة مؤتة كانت أمثولة علمتهم كيف تؤكل الكتف ، حتى إذا رأوا فى جندهم الكفاية أعادوا الكرة لا على الشام وحدها بل على العراق أيضا» .

فقال عبدالله : «وهل علمت أنهم حملوا على العراق ؟»

قال الراهب : «نعم إنهم حملوا عليه حملة إذا لم يكن فوزهم فيها تاما ؛ فلا أقل من أن يؤذوا الفرس ويضيقوا عليهم» ..

ثم قال : «ولقد أخبرنى أحد التجار أن أولئك الحجازيين بعد أن فتحوا مكة عادوا إلى المدينة ، وأرسلوا جندا منهم إلى ما بقى فى جزيرة العرب لم يدخل فى الإسلام ، فغزوا غزوات عدة فازوا فيها كلها . ومن أكبر قوادهم رجل منهم يقال له «خالد بن الوليد» أتى بالمعجزات فى حروبه ، حتى سماه النبى «سيف الله» ، ومنهم «على بن أبى طالب» ابن عم النبى ، وهو بطل مجرب . وكذلك رجل شيخ من كبار مشيريهم اسمه «عبدالله بن أبى قحافة» ، لقبه «الصديق» ، ويسمى «أبا بكر» وهو حمو النبى ، والد امرأته «عائشة» ، ومنهم رجل آخر يندر مثاله فى العالم فى شدة البطش وصدق الغيرة على الحق اسمه «عمر بن الخطاب» ، وآخر اسمه «عمرو بن العاص» ، وغير

هؤلاء جماعة كبيرة ، فتمكن النبى بذلك من إخضاع قبائل العرب ، حتى انه لم يعد يحتاج فى إخضاعهم إلى إرسال الرجال ، بل كانوا يفدون عليه وفودا يلتمسون الدخول فى دينه ، فرأى الوقت قد آن لفتح الشام فجند جيشا بقيادة رجل اسمه «أسامة بن زيد» ، وأمره أن يسير إلى فتح الشام ، وفيما هو فى ذلك وافاه القدر ، فتوفى قبل مسير الجند ، ولكنه خلف أبطالا قاموا بنصرة دينه ، فتولى الخلافة بعده حموه «أبو بكر» المتقدم ذكره ، وهو شيخ جليل القدر ، وأخبرنى التاجر أن المسلمين لما مات النبى اختلفوا فيمن يولونه الخلافة بعده ، لأنهم قسمان : قسم يقال لهم «الأنصار» ، وقسم يقال لهم «المهاجرون..» ، فقال «حماد» : «وما حقيقة هذين الحزبين ؟ أهما مذهبان دينيان كالمذاهب التى عندنا ؟» .

قال الراهب : «لا يا ولدى ، إن «المهاجرين» هم الذين هاجروا مع النبى من مكة إلى المدينة يوم شدد أهله النكير عليه هناك ، فتبعه من قريش أكثرهم غيرة عليه ، فسموا «المهاجرين» ، وأما «الأنصار» فهم أهل المدينة الذين قاموا بنصرته لما جاءهم مهاجرا ، فحاربوا معه ، فسموا «الأنصار» .. فكل من الأنصار والمهاجرين يظن نفسه أولى بالخلافة ، فاختلفوا فيمن يتولاها حتى كادت تقوم بينهم فتنة . ويظن صاحبنا التاجر أن الفضل فى فض هذا الخلاف يرجع لأحد المهاجرين ، وهو «عمر بن الخطاب» ، وقد ذكرته لكم الآن ، فهو الذى توسط فى الأمر ، وبايع «أبا بكر» فبايعه الناس احتراما له أو خوفا منه ، فصارت الخلافة فى «المهاجرين» وهم من قبيلة النبى (قريش) فخليفة المسلمين الآن «أبو بكر الصديق» ..

ولما توفى النبى تغيرت قلوب بعض أهل جزيرة العرب ممن اعتنقوا الإسلام فى حياته ، ارتد كثيرون منهم إلى ما كانوا عليه من النصرانية أو اليهودية أو غيرهما ، فتهيب المسلمون لذلك ، فاجتمعوا وأوعزوا إلى «أبى بكر» أن يعدل عن إرسال الجند إلى الشام لاحتياجهم إليهم فى قمع المرتدين ، فأبى إلا إنفاذ ما أمر به النبى ، فأرسل «أسامة» وجنده

إلى الشام . ومما حكاه لى التاجر حكاية وقعت لأبى بكر هذا يستغربها كل من عاشر حكامنا من الروم أو الفرس» .

فقال عبدالله : «وما هى ؟» .

قال الراهب : «أخبرنى التاجر أن أبا بكر رافق ذلك الجند فى خروجهم من المدينة ، وكان «أسامة» راكبا و«أبو بكر» ماشيا ، فخجل «أسامة» من ذلك لأنه شاب وذاك شيخ ، فضلا عن أنه رئيسه ، فعرض عليه أن يمشى هو ويركب «أبو بكر» فأبى ألا أن يشيعهم ماشيا .. ويدل ذلك على رغبة حكامهم فى الخدمة لا الرياسة . وما أوصاهم به قبل عودته قوله : «لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا» ، هل سمعتم مثل ذلك من رؤسائنا ؟ لا أنكر عليكم أن النصرانية تأمرنا بمثل ذلك ، ولكن حكامنا نبذوا الدين ، وسيعود ذلك عليهم وبالا» ، قال الراهب ذلك ، وقد أخذت الحدة منه مأخذا عظيما ، حتى ارتجف صوته ، ثم سكت.

وكان عبدالله وحماد وسلمان يسمعون حديث الراهب ، فقال عبدالله : «ان مثل هؤلاء لابد من أن يغلبوا العالم ، فعساهم أن يبدأوا بالعراق ، وينقذونا من دولة الفرس الظالمة» .

فقال الراهب وقد تنفس الصعداء : «إنك تتمنى أمرا قد وقع فعلا ، فإن جيش «أسامة» هذا لم تطل غيبته ، لعلمه أن الخليفة أحوج إلى نصرته فى قتال أهل الردة من فتح الشام ، فعاد بجنده وانضم إلى المسلمين فى حروب أهل الردة» . فقال حماد : «يا حبذا لو يسير خالد الذى ذكرته إلى العراق» .

فضحك الراهب ضحكة يتخللها عبوس ، وقال : «لقد أصبت يا ولدى ، فإنه عمل ما أردته ، فسار «خالد» هذا إلى العراق لفتح الحيرة وقتال الفرس» .

وتذكر «حماد» أمره مع «هند» وأراد أن يغتنم فرصة وجوده عند الراهب لاستشارته فى أمر الزواج .. ولكنه استحى ، فخاطب «عبدالله»

على انفراد قائلا : «أتظن أنه يجوز لنا التداول فى أمر الزواج ؟ أو نحن لا نزال مقيدين بالوصية ؟» .

قال عبدالله: «دعنى أسأل الراهب ونأخذ رأيه ، فما يشير به نفعله» ، وتحول نحو الراهب فسأله ، فقال الراهب : «يظهر من خطاب الناسك لكم انه يحلكم من ذلك القيد ، وفى العدول عن الانتقام فضيلة كما تعلمون ، وديانتنا توصينا بمحبة عدونا ومباركة لاعنينا ، وتحظر علينا الانتقام» .

فسر «حماد» بهذه الفتوى وسكت ، حتى إذا خرجوا من عند الراهب انفرد «بعبدالله» وقال له : «ألا ترى أن نذهب غدا إلى البلقاء نقابل «جبلة» وأنت معى ، فقد فرغنا من حكاية النذر ، وآن لكما أن تجتمعا ، وخصوصا بعد أن ظهر ما ظهر من رفيع نسبنا» .

فقال عبدالله : «أرى يا مولاى أن تبقى أمر نسبك مجهولا كما كان ، لنرى ماذا يجد من حوادث الزمان» .

فقال «حماد» : «ولماذا نكتمه وهو شرف يتسابق إليه الناس ، وخصوصا أنهم اعترضوا على زواجى «بهند» لغموض نسبى ، فهل أبقيه غامضا ؟» .

ففكر «عبدالله» هنيهة ، ثم قال : «وأرى مع ذلك ألا تذكره ، وعلى كل حال فالأمر راجع إليك» .

فسكت «حماد» ، وكانا قد وصلا إلى باب الغرفة .

فلما خلا حماد بعبد الله قال له : «أعترف لك بأن اطلاعى على نسبى قد قلل من أسباب سعادتى ، وأحسبنى كنت أسعد حالا يوم كنت «حمادا» ابن الأمير «عبدالله» ، أما وأنا «المنذر بن النعمان» فأرانى تعيسا يتيما مظلوما» .

قال «عبدالله» : «كنت أتوقع ذلك منك ، ولكننى لم أر بدا من أن أقص عليك ما عهد به إلىّ ، ثم إنك ستكون عما قليل ملك غسان ، والغساسنة لا يقلون سطوة وبطشا عن ملوك الحيرة» .

فانبسط وجه «حماد» لذلك ، فقال : «أنذهب معا إلى صرح الغدير ؟» . قال : «لو علمت أن جبلة هناك لذهبت معك» .

فقال «حماد» : «إذن أذهب أنا فألتمس لك موعدا نجتمع فيه «بجبلة» ونتم الزواج» .

قال عبدالله : «حسنا تفعل» . فأخذ «حماد» يعد جواده للركوب..

البرد والخاتم

أما «هند» فلم يأت يوم الشعانين حتى ملت الانتظار ، وكانت تتوقع أن ترى «حمادا» فى مساء ذلك اليوم أو فى صباح اليوم التالى ، فمضى اليوم والغد وهى تعد الساعات والدقائق وتحسب لتأخره ألف حساب .. فلما كان اليوم الثالث أفاقت من نومها قلقة البال ، فنهضت وسارت إلى والدتها والتمست منها أن ترافقها إلى دير بحيراء ، أو تأذن لها فى الذهاب إليه وحدها .

فقالت سعدى : «لا أرى أن نفعل ، ولا تفعلى ، فلو رأى حماد المجىء إلينا لجاء» .

فخرجت «هند» وهي تفكر قلقة فى أمر «حماد» فلبست ثوبها وخرجت إلى الحديقة ، وقد هب عليها النسيم ، وعلت أصوات الطيور مغردة ، و«هند» تود انقطاع النسيم وخرس الأطيار ، مخافة أن تحول تلك الضوضاء بينها وبين وقع أقدام «حماد» إذا جاءها ماشيا بين الأشجار ، أو تخفى صوت جواده إذا صهل عند استقبال الصرح .

وفيما هى جالسة على حجر هناك تفكر فى ذلك ، رأت فارسا قادما عن بعد عرفت من جواده وظاهر لباسه أنه «حماد» فهرولت إلى والدتها وأنبأتها بقدومه، فدخلتا إلى قاعة الجلوس حتى جاءهما من أخبرهما بقدومه ، فخرجت «سعدى» للقائه ورحبت به ، فقبل يدها ، ودخلا الصرح ، وكانت «هند» عند الباب فسلم عليها ، ودخلوا جميعا إلى قاعة الجلوس ، وقد آنست هند فى وجه «حماد» تغيرا بعد قص الشعر ، ولكنها عجبت لمجيئه وحده ، وأرادت الاستفهام عن السبب ، على أن والدتها ابتدرته بالسؤال عن والده ..

فقال : «إنه كان عازما على المجىء معى ، ولكنه رأى من اللائق أن يقابل ملك غسان أولا» ..

فقالت : «جعل الله نذركم مقبولا ، هل قصصت شعرك يا ولدى ؟» .

قال : «نعم» .. قالت : «وهل سمعت الحكاية ؟»

قال : «نعم سمعتها» ، وحدثته نفسه أن يبوح بها ، فتذكر تحذير «عبدالله» فأمسك .

أما «سعدى» فلم تزد على هذا السؤال تأدبا ..وسألته إن كان يسره الخروج إلى الحديقة، وكان يود ذلك لعلمه أنه قد يخلو هناك بهند فيتعاتبان أو يتغازلان .

فخرجوا من باب خاص صغير ، وتخلفت «سعدى» فى القصر توصى بإعداد مائدة الغداء .

فمشى حماد وهند فى طرقات الحديقة .

نظرت هند إلى حماد وعيناها مشرقتان تتلألآن ، وقالت : «ما الذى دعاك إلى التعجيل بزيارتنا ؟ أما كان الأدل على شوقك أن تؤجل زيارتك إلى عيد الفصح ؟» .

فأدرك مرادها، وأحب أن يمازحها، فقال : «تركنا يوم الفصح لمقابلة والدك بشأن الإكليل ، أم ترين تأجيل ذلك إلى الأحد الجديد ؟» .

فخجلت وأطرقت ، وقد توردت وجنتاها ، فازداد إشراق وجهها، وقالت : «لو عرفت أنك تجيبنى بمثل ذلك ما أقدمت على سؤالك ؟» .

وسارت نحو شجرة من البرتقال تقطف زهرة ، فتبعها «حماد» وهو يقول : «ما بالك تهربين منى يا «هند» ؟ فإذا كنت تريدين التخلص من قربى فقولى لى كما قال غيرك إن نسبى غامض ، لذلك فإننى لست جديرا ببنت ملك غسان» ..

فلم تجبه وقد كان يتوقع أن يجرهما الحديث إلى حكاية السر فيخبرها بحقيقة نسبه ، ويرى ما يبدو منها ، وخاف أن تأتى والدتها فيقطع الحديث ، فدار نحوها حتى قابلها وجها لوجه وأمسك يدها، فقال «حماد» : «لم لا تسألينى عن حكاية السر ؟»

فقالت له : «يظهر أن حكاية السر عزيزة لديك لا نستحق سماعها» .

قال : «لا يعز عنكم شئ يا حبيبتى» . قال ذلك ومد يده إلى جيبه ، وأخرج خاتما دفعه إليها وقال : «هذا هو سرنا ، فانظرى إليه» .

فتناولت الخاتم وتأملته ، فاذا هو منقوش بحرف لا تعرفه ، فقالت : «انه لا يزال سرا إذ لا استطيع قراءته» . فقال : «أنا أقرأه لك ؟ ثم قرأ «النعمان بن المنذر» .

فلم تفهم المراد ، فقالت : «وما معنى ذلك ؟» .

قال : «معناه أن نسبى الذى كان غامضا عنك وعنى كان مختبئا فى هذا الخاتم» .

فأخذت تفكر فى مغزى كلامه ، فأدركت أنه ينتسب إلى «النعمان» ، ولكنها استبعدت ذلك ، فقالت : «ألعلك تنتسب إلى الملك النعمان ؟» .

قال : «بل هو أبى» . وجعل ينظر إلى ما يبدو منها ، فرآها قد استغربت قوله ، ولا تزال تتملكها الدهشة .. ولكن الإعجاب والسرور ظهرا على وجهها معا ، فقالت : «ومن أنبأك بهذا النسب؟ وكيف خفى عنك إلى الآن ؟» .

قال : «لذلك حديث طويل سأقصه عليك فى غير هذا المكان ، وإذا كان الخاتم لا يكفيك فانظرى إلى هذا الرداء» وكشف عباءته عن برد «النعمان» وكان تحت أثوابه ، فنظرت إليه ، فلما تحققت نسبه عظم فى عينيها ، ولكن الاستغراب غلب عليها وهى تحسب نفسها فى حلم.

ثم سمعا وقع أقدام ، فنظرا ، فإذا بوالدتها قادمة ، فأسرع «حماد» إلى الخاتم فخبأه ، وطلب إلى «هند» كتمان الحديث الآن . أما هى فبرغم رزانتها وتعقلها ودت أن تطلع والدتها على ذلك الخبر.

أما «سعدى» فإنها جاءت مسرعة ، وفى وجهها خبر، فنظرا إليها متسائلين، فقالت : «لقد أطلت الغياب عليكما لاشتغالى برسول قدم من عند الملك «جبلة» ومعه هذا الكتاب» . ودفعت الكتاب إلى «هند»

ففضته فإذا هو من والدها يقول فيه : «هل عرفتم شيئا عن ولدنا «حماد» ؟ وهل وفى بنذره؟ فإنى أحب أن أراه قبل سفرى إلى الإمبراطور ، فقد أرسل إلىّ رسله بالذهاب إليه لمهمة سأقصها عليكم عند الاجتماع بكم» .

فقالت سعدى : «أكتبى إليه أنه جاء وقد وفى بالنذر» .

فقال حماد : «أرى أن أسير إلى والدى وأجئ به ليتشرف بمعرفة الملك جبلة أيضا» .

قالت : «حسنا تفعل» . فعادوا إلى القصر ، وكتبوا إلى «جبلة» بذلك ، على أن يكون مجيئه فى الغد .

فركب «حماد» جواده وسار إلى دير بحيراء ..

كل سر جاوز الاثنين شاع

وأما «هند» فقد ظلت تفكر فيما سمعته من «حماد» عن نسبه، فأخذت «سعدى» تجاذبها أطراف الحديث ، حتى باحت لها بالسر، ولم تكن «سعدى» أقل استغرابا من «هند» ، وحثتها أن تطلع والدها على ذلك ..

فلما جاء «جبلة» فى ضحى الغد أنبأته بالخبر ، وكانت تتوقع منه استحسانا ، ولكنها رأت انقباضا ، وخافت أن يترتب على ذلك ما يسوؤها ، لأن «جبلة» ما لبث منذ سمع ذلك الخبر منقبض النفس ، غارقا فى بحار التأمل ، لعلمه أن «حمادا» اذا تزوج «هندا» فسيكون وريثه فى الملك ، إذ ليس له ذكور يرثونه ، فإذا كان «حماد» من عامة الناس بقى الملك باسم الغساسنة .. ولكنه رأى بعد ما علمه من انتسابه إلى المناذرة أن الملك سيخرج به من الغساسنة إلى المناذرة ، فيكون قد سعى بنفسه إلى زوال ملكه ، فارتبك فى أمره ، وود لو أنه زوج هندا لثعلبة إبقاء للحكم فى عائلته ، ولكنه كتم ذلك كله ، وتظاهر باستغراب ما سمعه ..

أما «هند» فكانت تراقب حركات والدها ، وتنظر إلى ما يبدو منه ، وقد انقبضت نفسها .

وفيما هم فى ذلك سمعوا قعقعة اللجم وصهيل الخيل عند باب الحديقة ، فأطلوا وإذا «بحماد» ووالده ، فخرجوا لاستقبالهم ، فلما وقع نظر «حماد» على «جبلة» هم بتقبيل يده فمنعه ، وتعانقا ، وتقدم «عبدالله» إلى «جبلة» فصافحه ، وتعارفا ، ودخلوا جميعا إلى قاعة الجلوس ، وأخذوا فى الأحاديث المتنوعة ، إلا حديث النذر ، فإنه لم يدر بينهم قط .

فقالت سعدى لجبلة : «قلت لنا فى كتابك إن الامبراطور «هرقل» أرسل يدعوك إليه .. فما الذى دعاه إلى ذلك ؟»

قال : «دعاه إليه اضطراب فى جو السياسة أوجب اهتمامه بالتأهب للحرب عاجلا» ..

فبغت الجميع ، واستعاذ «حماد» بالله ، وخاف أن يحول ذلك بينه وبين «هند» إلى أجل بعيد ، فقال : «وما هو ذلك الاضطراب يا عمي؟..» .

قال : «لقد أنبأنا الجواسيس أن الحجازيين الذين جاءوا منذ بضع سنين وتراجعوا عن مؤتة ، قد استفحل أمرهم واتسع سلطانهم، وقد توفى نبيهم وخلفه بعض أصحابه ، فجند جندا كبيرا لقتالنا ، ولا يلبث أن يصل إلينا قريبا ، فبعثت إلى هرقل بذلك ، فأرسل يستقدمنى، للتحدث فى شأن التجنيد ، وقد قيل لنا إن حملتهم هذه المرة ستكون أصعب مراسا من الماضية ، وقد جاءوا فرقاً يقودهم أعاظم القواد» .

فقال عبدالله : «سمعنا عن إرسال ذلك الجند إلى العراق لحرب الفرس ، لا للشام» .

قال جبلة : «ذلك جند آخر بعثوه إلى العراق فى العام الماضى ، أما الآن فإنهم يعتزمون القدوم إلينا» ..

فقال حماد : «هل يرى سيدى أن غيبته ستطول هناك ؟» ،

قال جبلة : «لا أدرى .. ولكننى أظنها طويلة» ..

قال حماد : «نسير إذن فى خدمتك» ..

قال جبلة : «لا أرى حاجة إلى ذلك .. والأولى أن تبقيا فى «بصرى» ريثما أعود أو أبعث اليكما . أما «سعدى» و«هند» وسائر أهل

هذا القصر فيسيرون معى خوفا عليهم من غائلة العدو ، وهم فى هذا الخلاء» .

فلما سمعت «هند» ذلك خفق قلبها ، وكادت الدموع تتناثر من عينيها ، وقد أدركت أن والدها يضمر السوء «لحماد» .

أما «حماد» فلم يعلم ما فى نفس عمه ، وظنه لم يعلم بحقيقة نسبه أو حدث ما يوجب نفوره ، ولكنه استعظم فراق «هند» بعد أن كاد يظفر بها على أثر ما قاساه من المشقة والبلاء فى سبيلها .

أما «عبدالله» فأدرك أن فى الأمر شيئا جديدا أوجب هذا التباعد، ولولا ذلك لم يكن ثمة ما يمنع المسير معه حيثما سار ، فخامره شك فى كتمان «حماد» للسر فنظر إليه بطرف خفى ، ففهم «حماد» مراده ، فأدرك أنه أخطأ فى اطلاع «هند» على ذلك السر .

وشاركتهم فى ذلك الإحساس «سعدى» لأنها أعلم الناس بأخلاق زوجها ، فقالت له : «ألا ترى أن نسير جميعا معا ؟ وما الفائدة من بقاء «حماد» هنا ؟» .

قال : «بل أرى بقاءه هنا ، وسأخبرك بما يمنع ذهابه معنا» ، قال ذلك في جفاء ، فسكتت وسكت الجميع .

ثم آن موعد الغداء فتغدوا والسكوت سائد عليهم جميعا .. فلما نهضوا أمر «جبلة» أن تعد الركائب لمسير زوجته وابنته معه فى ذلك اليوم ، فشق ذلك على «عبدالله» ونفر من «جبلة» . وعول على تحويل عزم «حماد» عن «هند» ، وقد فاته أن الحب يتعاظم بقدر ما يعترضه من العقبات .

فاستشار عبدالله حمادا فى الانصراف ، فأجابه إليه بالرغم منه ، ووقفا ، فتقدم «حماد» إلى عمه وودعه وهو يكاد يشرق بدموعه ، وسار إلى سعدى وهند يودعهما ، وهند تبكى وتنتحب ، ووالدتها تخفف عنها وتلتمس الأعذار لما ظهر من جفاء والدها، فلما سمعت وقع أقدام «حماد» خرجت «سعدى» لتودعه، واعتذرت عن هند بأنها تشكو من صداع ألم بها حتي أبكاها.

فأدرك «حماد» أنها شعرت مثل شعوره، وأدرك أنها باحت بالسر، ولم يلم إلا نفسه لأنه لم يوصها بكتمانه، فقال والدمع يتلألأ في عينيه: «دعيني أري هند قبل ذهابي». وكانت «هند» قد استعدت للقائه، فمسحت دموعها وحاولت إخفاء ما بها، وخرجت إلي «حماد» وهي تتجلد، ومدت يدها، وتجلد هو أيضا فودعها مبتسما، ثم ودع «سعدى» وخرج، فلقي «عبدالله» في الحديقة ينتظر قدومه فركبا، فسارا مدة صامتين وكل منهما يفكر في أمر، و«حماد» يتحرق ندما لما باح به من أمر نسبه، وشعر بخطئه نحو «عبدالله» لأنه لم يطعه فى كتمانه، فظل صامتا.

أما «عبدالله» فلم يبق عنده شك فى تغير «جبلة» وضياع ما كانوا يأملون فيه.. ولكنه لم يذكر ذلك «لحماد» اشفاقا عليه.. واعتزم أن يثنيه عن الزواج فيما بعد.

إن الله مع الصابرين

فلما اقتربوا من الدير، قال «عبدالله»: «أترى ياسيدى أن نقيم فى الدير أو نذهب إلى بصرى؟..».

قال «حماد»: «لك الأمر، ولكنني أرى بصرى أفضل لنا بعد ما سمعناه من حملة العرب الحجازيين».

قال «عبدالله»: «الأمر لك».. وخرجوا نحو الدير، فباتوا فيه تلك الليلة علي أن يستأنفا السير إلى بصرى.. ولم ينم «حماد» إلا قليلا لكثرة ما تراكم عليه من الأفكار.

فلما أصبحوا أخذوا يستعدون للركوب، فذهب «عبدالله» لوداع الراهب، وظل «حماد» وحده يشتغل في بعض المهام، وكان الوقت ضحى، وفيما هو ينظر إلى خارج الغرفة رأى امرأة تنظر إليه، عرف أنها الجارية التى رافقت «هند» إلى الصومعة يوم التقى بها المرة الأولى هناك، فبغت لرؤيتها وهرول إليها.

فقالت له: «هل تعرف بائع الحلى؟».

فقال: «نعم، وصلت إليه».

فدفعت إليه منديلا كان في يدها، وتحولت راجعة.

فقلب المنديل بين يديه، فإذا هو رسالة قد كتب فيها: «لايضعف عزمك ما رأيته البارحة من والدى، واصبر إن الله مع الصابرين» فعلم أنها رسالة من «هند» فغمره السرور.. ولكنه ود لو يعلم أين هي، فيسير إليها، فتذكر أن والدها سائر إلي حمص لمقابلة «هرقل»، فقال فى نفسه: «لا أظنه يحمل أهله معه إلى هناك، فربما يتركهم فى البلقاء».. فركب هو و«عبدالله» وسارا إلى «بصرى» وأقاما فى أحد المنازل، وكان «حماد» قلقا على «هند» لايهدأ له بال، كان يلوم نفسه لأنه أعلن نسبه، وقد أدرك قيمة نصائح عبدالله، ومال كل الميل إلي استشارة عبدالله فى ذهابه إلى البلقاء، وخشى إذا استشار عبدالله أن يشير عليه بترك «هند» وهو لايستطيع ذلك، ولا تسهل عليه مقاومته بعد أن اختبر صدق نصائحه، فسكت وسلم الأمر لله.

أما «عبدالله» فكان يتجاهل كل مايظهر علي «حماد» من القلق، ويدعوه من حين إلى آخر إلى الخروج للصيد، كما كانا يفعلان أول مجيئهما تلك الديار، وكان «حماد» يسير معه لعله يلتقي برائح أو غاد، فيطلع منه علي خبر «هند» أو والدها، ولم يكن «عبدالله» يفاتحه في أمرها إلا عرضاً في أثناء كلامه عن قوات الروم ونحو ذلك، فإذا آنس من الحديث اقتراباً من الموضوع تباعد عنه، وهو يتوقع أن يفتر ميل «حماد» من تلقاء نفسه، وكان «حماد» أكثر رغبة فى عدم الخوض فى ذلك الموضوع، لئلا يسمع نهيا أو نصحا يبعده عن «هند».

فقضيا شهوراً على تلك الحال، وهم لايسمعون إلا باستعداد الروم لدفع المسلمين، وأن جند المسلمين وصلوا إلى ضواحى الشام، وأقام بعضهم فى اليرموك، وكان «حماد» كلما سمع خبرا من هذا القبيل ازداد قلقا، حتى لم يعد يصبر على البقاء فى بصرى، ومال إلى الخروج منها إلى البلقاء، لعله يعرف شيئا عن «هند»، و«عبدالله» يشاغله بالصيد.

حصون «بصرى»

وفيما هما ذات يوم فى ضواحي «بصرى» يطلبون الصيد، قال «حماد»: «أرى الصيد قليلا فى هذه النواحي، ألا ترى أن نسير إلى البلقاء لعلنا نعثر على صيد كثير».

وفيما هما يتحدثان رأيا سربا من الغزلان فبغتا، فقال «حماد»: «ما هذه الغزلان؟».

فقال «عبدالله»: «إن مثل هذه الكثرة تدل على أمر خطير».

«لايجتمع هذا العدد منها ويسير فى جهة واحدة إلا فرارا من جند قادم، فلعل جندا من العرب قادم إلي بصرى». قال ذلك وصعدا إلى ربوة أشرفا منها على سهول بعيدة، فرأيا غبارا يتصاعد عن بعد.

فقال «حماد»: «أظنها جنود المسلمين قادمة لحصار «بصرى»، فياليتنا خرجنا منها قبل الآن».

قال «عبدالله»: «إذا لم يكن لنا بد من ملجأ خوفا من المسلمين فإن بصرى أقوى الحصون، فإذا فتحها المسلمون هان عليهم فتح سواها، فبقاؤنا داخل أسوارها خير لنا من الخروج إلى البلقاء أو غيرها.. وزد على ذلك أن أهل بصرى أشداء، وهم أكثر الناس حرصا على دينهم وأشدهم دفاعا عن مدينتهم».

وأراد حماد أن يتحقق من قوة جند الروم ليرى قدرتهم على الدفاع، فقال وهو يدير رأس جواده نحو بصرى وعبدالله يتبعه: «وماهى قوات الروم فى الشام، وكم مدينة مثل بصرى عندهم؟»..

قال «عبدالله»: «اعلم ياسيدى أن ولاية سوريا وهى ولاية الشام تقسم إلى ١٥ قسما أحدها بصرى، وقوات الروم كبيرة، وعدتهم كثيرة، ولكنهم شغلوا عن دينهم بدنياهم، وساد بينهم الانقسام».

ومازالوا فى هذا الحديث حتى وصلوا إلى المدينة، فرأوا أهلها فى هرج، والجند فى حركة يستعدون للدفاع.

فقال «عبدالله»: «هلم بنا إلى منزلنا، فإنه عال يشرف على الأسواق وما وراءها».

فسارا، وقال «حماد»: «ما قولك فى رومانوس حاكم بصرى هل هو خائف؟».

فقال «عبدالله»: «لا أظنه خائفا، وعنده مثل هذه الحصون وهذه القلاع، فضلا عن العدة والرجال، ولكننى أظن أن الولاية ستخرج من

يده إلى وال آخر جاء منذ أيام اسمه تراجان (ديرجان) وهو بطل محنك».

رومانوس وتراجان

ومازالا فى الحديث حتي وصلا إلى المنزل، فأطلا من إحدى نوافذه.. فإذا بالغبار قد كشف عن جند كثيف تتقدمه الأعلام والفرسان..

ولم يكد يظهر جند العرب حتى تسابق الناس إلى الأسوار ينظرون إليهم وهم يهزأون بهم وبألبستهم وسذاجة معداتهم، وبعد قليل جاء «رومانوس» فوقف فى أحد الأبراج ونظر إلى جند العرب، وقال لمن حوله من الضباط: «لانرى أن نقفل أبواب بصرى أمام هذا الجند الضعيف، ولكننا نخرج إليهم فنحاربهم فى هذا السهل»، وأمر بالجند أن يعسكروا خارج الأسوار مقابل معسكر العرب.

فلما رأى «عبدالله» هذا التهور خشى العاقبة لما يعلمه من بطش العرب وصبرهم على القتال.. وكانت له معرفة «برومانوس»، فلما علم بعزمه على الخروج بالجند حدثته نفسه أن ينصح له ألا يفعل، فسار إليه و«حماد» معه، وقد علم أنه توجه إلي دار حكومته، فلما وصل إلى الدار رآها غاصة بجمهور من رجال الحكومة، وكلهم راضون عن رأى «رومانوس»، ولكنه لم ير تراجان بينهم.. فلما رأى إجماعهم على ذلك علم أنهم لن يصغوا إلى كلامه، فرأى أن يخاطب «تراجان» فى الأمر، فسأل عنه فقيل له إنه فى منزله.. فسار إليه، وكان قد عرفه واجتمع به مرارا، فاستأذن هو و«حماد» فى الدخول عليه، فأذن لهما فدخلا. رحب بهما «تراجان» وكان يعرف العربية، فجلس «عبدالله» وجلس «حماد» إلى جانبه.

فقال تراجان: «هل تعرفون هؤلاء الحجازيين؟»..

فقال عبدالله: «لقد عرفناهم وشهدنا حروبهم غير مرة».

فقال تراجان: «وكيف رأيتموهم؟».

قال عبدالله: «رأيناهم أشداء ذوى صبر وجلد، لا يعبأون بالعدة ولا بالكثرة».

قال تراجان: «أترون أن الخروج إليهم خطأ؟»

قال عبدالله: «نعم يامولاى، وهذا ماجئنا به إليك، فكيف تخرجون إليهم فتعرضون جندكم لنبالهم وسيوفهم، وقد كان لكم غنى عن ذلك بهذه الحصون المنيعة؟».

فتنهد «تراجان» وقال: «هكذا أراد «رومانوس» ولقد نصحت له فلم ينتصح، وكأنى به يلقي بجند الروم إلى التهلكة».

فقال «عبدالله»: «أليس من سبيل إلى إقناعه؟».

قال: «بلى.. لأنه عنيد معتد بنفسه، وسيكون إخفاقه عظيماً، وإذا أخفق فإنما يكون دمه على رأسه».

فآنس «عبدالله» فى كلام «تراجان» لهجة الشماتة، فسكت وودعه، وخرج «حماد» معه، فلما خرجا قال «حماد»: «ماذا ترى من أمر هؤلاء؟ إنى أخاف أن تدور الدائرة على هذه المدينة فيصيبنا مما يصيب أهلها».

قال «عبدالله»: «أنخرج إلى المسلمين».

قال «حماد»: «كلا، إن خروجنا خيانة».

قال «عبدالله»: «أرى أن نتريث لنرى ما يكون من حربهم».

وسارا حتى أتيا المنزل، وكان الليل قد أسدل نقابه، فأطلا على معسكر العرب فإذا بهم قد نصبوا الخيام وأوقدوا النار ونصبوا الأعلام..

فقال «حماد»: «ومن هو ياترى أمير هذه الحملة؟ ألعله خالد بن الوليد؟».

قال «عبدالله»: «إن خالدا فى العراق على ما علمت، ولكن الأمراء غيره كثيرون».

فتح «بصرى»

وباتوا تلك الليلة والجند يستعد للخروج، وفي الصباح أفاقوا على دق الأجراس، وإذا بالجند خارجون، وفيهم اثنا عشر ألف فارس والقسوس أمامهم بالصلبان والمباخر، فسار عبدالله وحماد إلى الأسواق، فرأوا الناس يسرعون إلى الكنائس يقيمون الصلاة، ويدعون لجندهم بالنصر، وصعد الكهنة على الأسوار بالصلبان والشموع، ورشوا الجند

بمياه المعمودية، وأخذوا يترنمون بالأناشيد المسيحية، وفيهم الرجال والنساء والأولاد يدعون بصوت واحد بالنصر لجند الروم.

أما جند العرب فكان قائده «شرحبيل بن حسنة» كاتب وحى النبى، وجهه أبوعبيدة بن الجراح فى أربعة آلاف فارس لفتح بصرى، وكان أبوعبيدة قائدا عاما لجنود المسلمين فى الشام، ولاه الخليفة أبوبكر الصديق.

فوقعت بين الجيشين عدة وقائع انتصر فيها الرومانيون فى بادىء الأمر.

وفى ذات يوم التحم الجيشان، فظهر الرومانيون، واختل أمر المسلمين حتى كادوا يعمدون إلى الفرار، و«عبدالله» يراقب حركاتهم، و«حماد» إلى جانبه، وإذا بغبار يتصاعد من جهة الأفق، وبان من تحته جند عرفوا من طريقة تنظيمه وشكل أعلامه أنه جند المسلمين، فعلموا أنها نجدة جاءتهم، ولم يلبثوا أن رأوا فى مقدمة ذلك الجند رجلا ضخما عريض اللحية طويل القامة تخفق فوق رأسه راية سوداء، هو «خالد بن الوليد» فاشتد أزر المسلمين، وأعادوا الكرة، فتقهقر الروم حتى دخلوا الأسوار وأقفلوا أبواب المدينة، فلقى تراجان رومانوس راجعا، فذكره بنصيحته، فغضب «رومانوس» لشماتته.

فلما علم «عبدالله» بما تمكن من النفور بين القائدين خشى سوء العاقبة..

وفى صباح غد برز «خالد» يطلب النزال، فنزل إليه «رومانوس» والناس ينظرون إليهما، وما يؤول إليه نزالهما.. وبعد نزال طويل عاد كل منهما إلي معسكره.

فدخل رومانوس بصرى وعلى وجهه مايدل على تغير فى خطته وقد فترت همته عن الدفاع، فلحظ ذلك عليه الذين يعرفون أخلاقه، وأما «عبدالله» فاجتمع بحماد وقال: «إنى خائف من هذا الرومى، فو الله لايلبث أن يسلم المدينة».

فقال «حماد»: «ولقد سمعت من بعض أصدقاء «تراجان» اليوم أنه جادل «رومانوس» ووبخه، فشق ذلك على «رومانوس» وتوعده بشر، وقال له: «إذا كنت أفرس منى فنازلهم، واشتد الخصام بينهما، وتحزب رجال الروم بعضهم لرومانوس، وبعضهم لتراجان، وتوعدوا رومانوس بالقتل، واتهموه بالخيانة وقالوا له: لا نرضاك حاكما علينا، وقد ولينا تراجان».

فلما أصبحوا نزل «تراجان» على جواده بعدته وسلاحه، وطلب المبارزة، فخرج إليه «خالد بن الوليد» فطال النزال بينهما، والجيشان ينظران، فمضى معظم النهار ولم يصب أحدهما الآخر بشر، فرجع كل منهما إلى معسكره.

فلما رجع تراجان إلى المدينة أسرع الناس إلى لقائه وسؤاله عما لقى من عدوه، وكان أول من لاقاه «رومانوس» وقد نظر إليه مستهزئا ضاحكا متوعدا له شرا.

فلما رأيا عبدالله وحماد من رومانوس مارأياه، خافا، فقال عبدالله: «لقد زاد خوفى الآن من مقاصد هذا الرومى، فلا أظنه إلا فاعلا شرا».

فقال حماد: «وما شأننا فى ذلك ؟».

قال عبدالله: «إنما يعنينا من الأمر المحافظة على حياتنا، مخافة أن يدخل العرب المدينة فيصيبنا منهم سوء، ألا تظننا كنا في أمان على حياتنا لو أقمنا فى دير بحيراء!».

قال حماد: «وكيف تكون في أمان هناك والدير لاحصن فيه ولاجند».

قال عبدالله: «ولكنني علمت أن خليفة هؤلاء المسلمين لما خرج لوداعهم يوم سيرهم إلى الشام أوصاهم بالرهبان والأديرة خيرا، فهم لايسيئون إلى راهب ولا يخربون ديرا».

فقال حماد: «لو ذكرت ذلك لفضلت البقاء فى الدير، ولكن نحن الآن فى بصرى وهى محاصرة، فما الرأى ؟».

ففكر «عبدالله» قليلا ثم قال: «إن سر المسألة ياسيدى عند رومانوس هذا، فلو استطعنا استطلاع شيء منه لعلمنا طريق النجاة، فأرى أن أسير إليه الليلة لعلى أتنسم خبراً».

قال: «حسنا تفعل».

وقضيا بقية يومهما فى المنزل، وبعد العشاء سار عبدالله إلى دار «رومانوس» وبقى «حماد» وحده، ولم يمض إلا القليل حتى عاد عبدالله وعلى وجهه ملامح البغتة.

فقال «حماد»: «ما وراءك ؟».

قال عبدالله: «أظن الأمر خطيرا، فإني سألت عن رومانوس فى منزله فقيل لى إنه نائم، فلم أصدق أنه ينام الآن، فخرجت أستطلع خبره من بعض الحرس، فعلمت أنه خرج إلى حيث لايعلم أحد، ويخيل لى أنه سار ليدبر مكيدة يسلم بها المدينة و......».

فقطع «حماد» عليه الكلام قائلا: «أظنه سيفعل ذلك، فما العمل ؟».

قال: «لا حيلة لنا ياسيدى إلا الانتظار حتى الصباح، فإذا تحققنا من عزمه على ذلك دبرنا وسيلة ننجو بها بأنفسنا»..

وفيما هما نائمان سمعا طارقا بعد منتصف الليل يطرق الباب، فهبا من نومهما مذعورين، فسألا: «من الطارق؟» فسمعا صوتا يقول: «إني خادمكما سلمان».

فهرول «عبدالله» للحال، ففتح الباب، فصاح به حماد: «أين كنت يا «سلمان» ؟ وما الخبر ؟».

قال سلمان: «جئت من معسكر «خالد» ولايلبث هو ورجاله أن يستولوا على الأسوار، فجئت لأعلمكما بالأمر، وهذا علم من أعلام المسلمين أنصباه على باب منزلكما لتأمنا سيوفهم إذا دخلوا المدينة».

فقال عبدالله: «بورك فيك أيها الصديق الأمين». فدخلوا جميعا وأوصدوا الباب، وسأله «حماد» أن يقص عليهما الخبر، فجلس «سلمان» وهو يلهث من التعب وقال: «أخبركما بالاختصار أن

رومانوس صاحب بصرى خرج إلى معسكرنا فى هذا المساء، فاعتنق الإسلام، وقال لخالد بن الوليد: «أرسل معى من تعتمد عليه ليتسلم المدينة»، فأرسل معه عبدالرحمن بن أبى بكر ومائة من المسلمين، فجئت أنا معهم، فأدخلنا من خرق فى السور، وأخذ الأمير عبدالرحمن ورجاله إلى قصره ليسلحهم ويسير بهم لقتل «تراجان». وقال: «كنت حينما جئت مع جيش خالد سألت الراهب الشيخ عنكما، فأخبرنى أنكما مقيمان فى بصرى، ودلنى على هذا المنزل، فهرولت إليه وأتيت بهذا العلم أضعه فوق الباب حماية لكما»..

ثم قال: «لقد وددت لو كنتما معى فى معسكر هؤلاء الحجازيين، لتروا ما رأيناه من شجاعتهم وصبرهم واتحاد كلمتهم».

فقال «عبدالله»: «وهل خالد وحده من القواد العظام؟».

قال «سلمان»: «وفيهم أيضا عبدالرحمن ابن خليفتهم أبى بكر، وهو الذى جاء معنا ليتسلم المدينة».

فسمعوا الضوضاء والضجيج، وبين الأصوات صوت التكبير.

فقال «سلمان»: «إن المسلمين الآن على الأسوار، وعما قليل يفتح أولاد رومانوس أبواب المدينة، فيدخلها المسلمون، فما لبثوا أن سمعوا ضجيج الناس وبكاء النساء والأطفال، فما طلع النهار إلا وقد فتح المسلمون بصرى، ثم سكت الغوغاء بعد قتل «تراجان» وتسليم أهل بصرى.

ففتح «سلمان» الباب، وخرجوا إلى شرفة من شرفات المنزل تطل على الشارع، فرأوا جثث بعض القتلي هناك بين ميت ومشرف على الموت، وقد تلطخت الأثواب بالدماء، والمسلمون قد توغلوا فى المدينة وامتلكوها، ولكنهم لم يقربوا منزل عبدالله لوجود العلم على بابه.

وفيما هم فى الغرفة ينتظرون ماتنتهي إليه حال بصرى، وقد اطمأن بالهم، سأل سلمان حمادا عما تم من أمر «هند»، فأخبره كيف شغلتهم الحرب عن الزواج، وعبدالله يسمع ويتجاهل، وحاول «حماد» إذ ذاك أن يبين لسلمان أن عمه «جبلة» لايزال على حبه وتقديره، وعبدالله لا يتكلم ولايعترض.

أما «سلمان» فقال: «وماهو موعد الزواج يامولاى؟».

قال حماد: «بعد أن تنتهى الحرب، ويرجع جبلة وأهله إلى البلقاء»..

قال سلمان: «أتعلم أين هم الآن؟».

قال حماد: «أظنهم فى البلقاء».

قال سلمان: «لا أظنهم هناك، فقد أنبأنا جواسيس العرب أن «جبلة» سار برجاله إلى اليرموك لنصرة جند الروم فى حرب المسلمين، ولايلبث جند خالد أن يذهب إلي هناك لنصرة المسلمين، فإذا كان جبلة فى اليرموك فلا أظنه يترك أهل منزله فى البلقاء وهى عرضة لغزوات العرب».

ثم قال: «أظنه يرسلهم إلى دمشق، ومع ذلك فإنى أرى أن أسير مع خالد حتى نصل إلى اليرموك وأبحث عن جبلة وأعود إليكم بالخبر، أو لعلى أعود إليك برسالة من هند»، أما عبدالله، فإذا به فى شاغل عنهم ينظر من نافذة الغرفة إلى الشارع، والاهتمام ظاهر على وجهه، فالتفتا إلى ماهو ناظر إليه، فكان أول ماوقع نظرهما عليه راية سوداء تحتها جند من العرب فى وسطهم بعض الفرسان، وفى مقدمتهم فارس كبير الجسم، طويل القامة، كبير العمامة، واسع العينين، كثيف الحاجبين، على وجهه أثر الجدرى، وقد ركب على جواد، يتنقل بمشيته كالعروس، ووراءه فرسان حولهم الأعلام، وهم فرحون بما أوتوه من النصر، فالتفت «سلمان» إلى عبدالله قائلا: «أعرفت من هو هذا الفارس ياسيدى؟».

قال عبدالله: «عرفته منذ أن كان فى وقعة مؤتة... وكنت أنا أسيرا عندهم، أليس هو خالد بن الوليد؟».

قال: «هو هو بعينه، أنظر إلى هذه القامة وتلك الطلعة، إن خالدا يامولاى من معجزات خلق الله، لم أر ولم أسمع بمثل شجاعته وشدة بطشه، فلا غرو إذا سموه «سيف الله»، لقد رأيت منه أعمالا تعجز الأبطال عن القيام بها فى حروبه بالعراق، فقد كان قبل إسلامه قائد

فرسان قريش فى الجاهلية، فأسلم فى السنة الثامنة للهجرة مع عمرو بن العاص، وقد شهد وقعة مؤتة بالبلقاء، وعلى أثر ما أظهره من البسالة هناك سماه الرسول «سيف الله» ثم كان عونا عظيما للمسلمين فى كل حروبهم، حتى تولى الخلافة أبوبكر فأنفذه إلى فتح العراق».

فتح الحيرة

فقال حماد: «أخبرنا ياسلمان عما فتحه خالد من العراق، وكيف رأيت حال الفرس؟».

قال سلمان: «أما خالد فإنه من أعظم القواد، وقد لقيته فى الحيرة يوم فتحها، وكان قبل ذلك قد استولى على بلاد كثيرة بلا حرب، لأن العراقيين قد ملوا من حكومة الفرس وظلمهم، فأول مكان استولى عليه خالد بلاد «بانقيا» و«باروسما» و«الليس»، ثم ساروا إلى الحيرة. لم يكد يصل خالد إلى الحيرة حتى خرج إليه «إياس» وسائر أشراف حكومته، فاستقبلهم كما يستقبل الغالب المغلوب، ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، فاختاروا البقاء على النصرانية ودفع الجزية، وقد أخبرنى بعض رجال خالد أنها أول جزية أخذها المسلمون من الفرس، ثم تحولوا عن الحيرة وحاربوا الفرس فى عدة مواقع وفازوا فى أكثرها.. «أما أنا قلت في نفسى: «قد آن الوقت الذى أستطيع القيام فيه بالمهمة التى جئت لأجلها»، فخرجت من الحيرة، حتى أتيت معسكر العرب، فالتمست الأمان، وطلبت أن أرى الأمير خالدا، فأخذونى إليه، فقلت: «اعلم أيها الأمير أن حال الفرس فى اختلال لموت ملكهم وانقسامهم فيما بينهم، فهم فى شاغل عن الحرب»، وأطلعته على خفايا كنت عالما بها، فأثنى على، فقلت فى نفسي إنها فرصة أغتنمها لحفظ ما لمولاى هناك من الأموال والعقار، فلما آنست من «خالد» ارتياحا إلى خدمتى التمست منه حماية تلك الأموال والعقار، فوعدنى بذلك. ويسرنى أن أخبركم بأن سقوط الحيرة كاد يقضى على دولة الفرس كلها، لأن الدهاقين، وهم ولاة الفرس، لما علموا بسقوطها جاءوا وصالحوه واستسلموا له.. فأخذ الجزية منهم،

وكتب إلى أهل فارس يدعوهم إلى الإسلام ويهددهم بالقتال، فلم يكن يمر يوم لانرى الناس فيه قادمين، وخصوصا عرب العراق وهم النصارى، وبعد قليل سار خالد، وأنا معه، ففتح الأنبار ثم عين النمر وغيرهما، وقد لاحظت منه أنه لم يتجرأ على المسير إلي «المدائن» قبل الاستعداد الكافى.. وفيما هو فى ذلك ورد إليه كتاب من الخليفة «أبى بكر» يأمره بالذهاب إلى الشام لنصرة جند العرب على فتحها، فجئت أنا معه حتى أتينا بصرى وهى محاصرة، وأنا لا أعلم مقركما، فخطر لى أن أسأل راهبنا الشيخ، فأخبرنى بمكان إقامتكما فانتظرت حتى تم الفتح»..

وكان عبدالله وحماد يصغيان لما يقصه عليهما «سلمان»، فلما انتهي إلى هذا الحد، قال حماد: «وما ظنك بإتمام فتح العراق؟ فإن خالدا لم يفتح منها شيئا كثيرا، والمدائن لاتزال على ماهى، والفرس لايزالون حاكمين».

قال: «رويدك ياسيدى، خالد لم يأت بصرى إلا مددا لجند الشام، إن الله سيتم انتقامه من أولئك الطغاة».

فقال عبدالله: «وما العمل الآن؟».

قال سلمان: «أرى ياسيدى أن أبقى أنا مع خالد كما كنت، فأسير معه إلى اليرموك، فقد سمعت أن العرب معسكرون هناك يتوقعون قتالا شديدا، وسيسير لنجدتهم».

فقال حماد: «وأين اليرموك ؟».

قال: «هى على مقربة منا غربا على نهر يقال له نهر اليرموك، يصب في نهر الأردن، حيث عسكر العرب».

فبدا أن في نفس حماد شيئا يكتمه.

فأدرك «سلمان» أنه يفكر فى «هند» و«جبلة» فقال: «ولابد من أن يكون جبلة مع جند الروم، فإذا بلغ اليرموك فسأستطلع مقر «هند» فأبعث إليكم بخبر منها».

فقال حماد: «ألا ترى أن نسير جميعا مع خالد؟».

فقال سلمان: «لا أرى حاجة إلى ذلك بعد أن أوعز إليك «جبلة» بالإقامة هنا ريثما يبعث إليكم، فلعله يفعل ذلك وأنتم بعيدون عنها فتفوت الفرصة.

أما عبدالله فظل صامتا، وحماد ينظر إليه، فأدرك أنه غير راض عن كلام سلمان، فقال: «ما رأيك يا أبي ؟».

فقال عبدالله: «الرأي رأيك ياسيدى، ولكننى أرى «جبلة» وأهل منزله لايهمهم شيء من أمرنا، أقمنا فى بصرى أم رحلنا عنها، يدلك على ذلك سكوتهم عنا وقد أصاب بصرى ما أصابها من الحرب، ولولا ذلك لبعثوا يسألون عنا» .. وسكت..

ثم خرج سلمان إلى معسكر خالد ليرى ماتم عليه الأمر، رأى العرب وقد أخذوا يستعدون للسير، فعاد إلى عبدالله وحماد، ليودعهما، فقال له حماد: «لا أرى أن أوصيك بإنفاذ خبر «جبلة» إلينا على عجل، وإطلاعنا على ماتم لأهل بيته، وأين هم ؟».

قال: «سمعا وطاعة، وسيأتيك الخبر سريعا» ثم ودعهما وخرج..

ولم يكن «سلمان» أقل من «حماد» قلقا على «هند»، وقد شارك «عبدالله» فى ارتيابه من «جبلة» فاعتزم أن يستطلع الحقيقة، وفى الغد أقلع خالد إلى اليرموك.

وقعة اليرموك

ولما تكامل جمع المسلمين فى اليرموك بلغ عددهم ٣٦ ألفا، منهم تسعة آلاف بقيادة خالد، فيهم ألف من الصحابة، من جملتهم مائة ممن شهدوا وقعة بدر الكبرى، ومن قوادهم أبوعبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وشرحبيل وأبوسفيان بن حرب، وكانت الحرب بينهم وبين الروم قبل قدوم خالد.

وكان أبوبكر قد ولى خالدا القيادة العامة على جند الشام كافة، والناس يحسبون أبا عبيدة بن الجراح أولى منه بتلك القيادة، فوقع بين المسلمين لذلك اختلاف، فلما جاءهم خالد حاول جمع كلمتهم، وقد أدرك ما فى نفوس بعضهم.. فوقف فى الجماهير وقد اجتمع

الأمراء حوله وقال: «إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى، اخلصوا جهادكم، وارضوا الله بعملكم». أما سلمان فقد أخذ منذ وصوله يحاول الخروج الي معسكر الروم ليرى جبلة أو يسمع خبرا عن هند، فصعد الي ربوة علي ضفة ذلك النهر، ونظر إلى معسكر الروم، فرآه قد ملأ الفضاء، وفيه الرايات والصلبان، فأنعم نظره فيه، فرأي معسكر الغسانيين منفصلا الي جانب، وشاهد راية جبلة وفسطاطه في وسطه، فحدثته نفسه أن يسير اليه، ولكنه خشي أن يشك المسلمون في أمره إذا رأوه فيوقعوا به شراً، فرأي أن يذهب اليهم بحيلة الجاسوسية، فعول علي أن يخاطب خالدا في ذلك، فسار الي فسطاطه فرأي الأمراء يتزاحمون فيه، وقد اجتمعوا للمفاوضة في أمر الحرب، فهاب الدخول، فصبر حتي انفض الجميع، وبقي خالد وحده، فالتمس الدخول عليه، فأذن له، فدخل وقبل يده، فقال خالد: «ماخبرك ؟»، قال: «هل يأذن لي مولاي بكلمة لعل فيها نفعاً؟»، قال «خالد»: «قل».

قال سلمان: «هل بعثتم من يستطلع أخبار الأعداء لمعرفة قواتهم ومواقعهم وعدد جندهم ؟».

قال خالد: «لقد فعلنا، ولكنني أري أنك أجدرهم بذلك»، قال سلمان: «إني عبد مطيع، فإذا رأيت أن أسير في هذه المهمة فعلت»..

قال خالد: «سر .. وافعل».

فقبل يده وخرج، ثم لبس ملابس الغسانيين وسار حتي اختلط بالغساسنة، فالتقي بأناس عرفهم في البلقاء، فظنوه كان معهم من ذي قبل، فاستطلعهم خبر «هند»، فعلم أنها مع والدتها في دمشق، ثم استخبر عن قوات الروم فعلم أنهم من الأرمن والسريان والمصريين، وان جملة الجند ٢٤٠ ألفا ماعدا العرب المتنصرة من الغساسنة وغيرهم، فخاف انتصار الروم.

فلما أسدل الليل نقابه عاد الي معسكر المسلمين، وأطلع خالدا علي حال الروم.

فقال خالد : «لا يهمنا أمر كثرتهم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» .

فقال سلمان : «ليست القوة في الكثرة يامولاي، ولكنها في الاتحاد، فقد علمت أن هؤلاء الجند منقسمون فيما بينهم لاختلاف أغراضهم ومشاربهم» ، ثم ودعه وخرج، هو يفكر في طريقة يوصل بها خبر هند الي حماد .

فلما أصبح الصباح، سمع سلمان التكبير والأذان في معسكر المسلمين، وقد قام الناس وقعدوا وأخذوا يتأهبون للقتال، فوقف يتأمل في طريقة تنظيمهم، فرأي خالدا وقد وقف في وسط الأمراء، وأمر بتنظيم الجيوش، فقسم الجند ٣٦ فرقة، وجعل الميمنة بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة بقيادة يزيد بن أبي سفيان، وجعل علي كل فريق رجلا من الشجعان، وبينما كان خالد يعبيء الجند علي هذه الصورة، سمع بعضهم يقول : «ما أكثر الروم وأقل المسلمين!» ، فقال خالد : «بل قل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالهزيمة» .. ثم أمر خالد أن يبدأوا القتال، فحاذر سلمان أن تصيبه نبلة، فتنحي وهو خائف أن تدور الدائرة علي المسلمين لقلتهم وكثرة الروم، فوقف في منعطف يطل على جند الغساسنة، ثم سار إلى ناحية أخري، والحرب قد احتدمت، فرأي رسول البريد قادما من جهة البلقاء، فعلم أنه قادم من المدينة بخبر جديد، فناداه سلمان قائلاً : «هل تريد الأمير خالدا؟» قال : «نعم، أين هو؟» ، قال : «في الميدان ولكنني أوصلك الي خيمته» ، فسارا معاً وعينا صاحب البريد علي الجند وحركاته، فلما رأي جند العرب ظافرا قال: «ألم يكن مقدورا لأبي بكر أن يسمع بخبر هذا النصر قبل موته ؟!» ، قال سلمان: «وهل مات أبو بكر!» .

قال صاحب البريد: «نعم مات.. ولقد جئت بخبره» ..

فقال سلمان : «ومن تولي بعده؟» .

قال صاحب البريد: «تولي عمر بن الخطاب، وهو رجل ذو بطش وقوة وحزم» .

فبغت «سلمان» لذلك الخبر، وقال : «ألا تظن أن وفاته تؤثر في مجري الأحوال؟» .

قال صاحب البريد : «لا أظن، ولكن عمر يفضل أبا عبيدة علي خالد، وقد فوضني بعزل خالد عن قيادة هذا الجند وتولية أبي عبيدة، علي أنني لا أري أن أبلغهم الخبر قبل انقضاء الموقعة، لئلا يفشلوا أو يختلفوا فيما بينهم» . فقال سلمان : «حسنا تفعل، فقل لي ما الذي حمل الخليفة عمر علي نقل القيادة الي أبي عبيدة؟» ، قال صاحب البريد: «لأن أبا عبيدة رجل كريم الأخلاق، لين سهل حليم رؤوف، وهو أقدم في الإسلام من خالد، والقيادة تحتاج إلى حكمة وتأن أكثر من حاجتها إلي الشجاعة» .

قال سلمان : «نعم، ولكنني علمت أن النبي سمي خالداً «سيف الله» أليس هو أحق بالقيادة؟» ، قال صاحب البريد : «ولكن النبي سمي أبا عبيدة «أمين الأمة» ، وكان يحب صحبته، والحق يقال إن كليهما فذ، ولكن للخليفة رأيا في ذلك» .

فقال سلمان : «تعال نجلس في مأمن ريثما تنقضي الحرب» ، فسار صاحب البريد مع سلمان إلي شجرة تواريا وراء جذعها.

وفيما هما يتحدثان وأعينهما ناظرة نحو المعركة، رأيا جند الروم قد تقهقروا، وعبر العرب خندقهم واستولوا علي أسلحتهم، وفر الروم ومن نصرهم من العرب المتنصرة وغيرهم، وتم النصر للمسلمين، ولم يمض إلا القليل حتي عاد المسلمون بالغنائم من الأثاث والحلي والأسلحة وغيرها، فمشي «سلمان» وصاحبه نحو خيمة خالد، فرأياه عائدا وحوله الأمراء علي غير نظام، لما دار بينهم من أحاديث النصر .

فحالما وقع نظر «خالد» علي صاحب البريد عرفه، فبعث اليه فتبعه الي الخيمة ، فأذن في دخوله فدخل، وأنبأ خالدا بموت أبي بكر وخلافة عمر، وعزله وولاية أبي عبيدة، فأوصاه خالد بكتمان الخبر..

أما «سلمان» فإنه عاد إلي مشاغله في أمر «هند» وعلم بانهزام «جبلة» وخاف أن يكون قد قتل، لكنه علم ببقائه حيا، ففكر في

الذهاب إلي «حماد» يطلعه علي ما علمه عن «هند»، ولكنه أراد أن يقف علي نوايا المسلمين ووجهة مسيرهم قبل ذهابه، فقضي أياما يبحث عن ذلك، فعلم أنهم عازمون علي السير نحو «دمشق» فخاف علي «هند» لعلمه أنها فيها، وود لو يعلم أين والدها، وما هو عازم عليه بعد اتجاه العرب الي الشام، فعول علي استطلاع ذلك من «جبلة»، وقد علم بانهزامه، فخرج من معسكر العرب يبحث عن جهة مسيره، فقيل له إنه سار في جملة منهزمي الروم الي «حمص»، والأمبراطور «هرقل» فيها فسار اليه.

خبر مفاجىء

بقى حماد وعبدالله في بصري ينتظران عودة سلمان بخبر اليرموك ومقام هند. وحماد كثير القلق لايرتاح له بال علي هند، وقد حدثته نفسه بالمسير إليها .. ولكنه لم يكن يعرف مقرها.. فلبث ينتظر رجوع سلمان بالخبر اليقين.

وكان يتلهي بالخروج للصيد، وهو لا يهدأ له بال، وأدرك «عبدالله» فيه ذلك وهو يلتمس العدول عنها من تلقاء نفسه.

فكان يصاحبه إلي الصيد ويكثر من محادثته في شئون مختلفة، إلا مسألة «هند». ولم تمض أيام حتي سمعا بانهزام الروم في اليرموك، فصارا يتوقعان سرعة رجوع «سلمان»..

وذات يوم نهض «حماد» صباحا، وأخذ يتأهب للخروج الي الصيد، وفيما هو يفتش بين أثوابه وسلاحه عثر علي الدرع الذي ألبسته إياها «هند» يوم السباق، ولم يكد ينظر إليها حتي اختلج قلبه، لما مر في ذاكرته من حوادث الحب، فعظم عليه احتباسه في «بصري» لا يعلم مقر حبيبته، مع ما ظهر له من جفاء والدها وفتور والده «عبدالله»، وما قام من الحروب، فوقف برهة ينظر الي الدرع ويقلبها بين يديه، حتي غلب عليه اليأس، وكادت الدموع تتناثر من عينيه، وكان «عبدالله» متغافلا عن ذلك، وقد خرج لقضاء حاجة له وترك «حمادا» في الغرفة وحده.

فلم يكد «حماد» يخلو بنفسه حتي سمع صهيل جواد غير جواده وغير جواد «عبدالله»، فانتبه بغتة وأطل من النافذة، فإذا براكب نزل من فوق جواده ودنا من الباب، وهو في ريب من أمر أهله، فأمعن «حماد» نظره إليه فلم يعرفه، فلاقاه الرجل بالباب وقال: «هل هنا منزل الأمير عبدالله العراقي ؟».

قال حماد: «نعم هو هنا».

قال الرجل: «وأين ابنه الأمير «حماد» ؟».

قال حماد: «ها أنذا، فماذا تريد؟».

قال الرجل: «إن بعض الناس في حاجة إليك ينتظرونك في دير بحيراء»..

فلما سمع «حماد» ذكر الدير خفق قلبه، واستبشر بقدوم القادم، فقال للرسول: «إني سائر إلي هناك علي عجل»، فودعه وركب وعاد علي الفور..

فأسرع «حماد» في ارتداء لباسه قبل أن يأتي «عبدالله». ولكنه لم يكد يخرج حتي لقيه «عبدالله» فاستغرب ركوبه قبله، فاعتذر بأنه يود الخروج لزيارة الدير وحده، فأذعن له وهو في ريب من الأمر..

فهمز «حماد» جواده، ولم يقف إلا أمام باب الدير، فرأي هناك فرسا عرف أنه من أفراس أهل صرح الغدير، فاستبشر ودخل الدير، فرأي امرأة عرف لأول وهلة أنها من خادمات «هند»، وهي التي حملت إليه الرسالة الأولي قبل ذهابه الي «بصري».

فحيته وهمت بتقبيل يده، فرد السلام ولسان حاله يقول: «قولي، ماخبرك؟»، فمشت أمامه الي غرفة هناك فتبعها، فلما وصلا الي الغرفة مدت يدها إلي أثوابها واستخرجت منديلا دفعته إليه وهي تقول: «إن سيدتي هند تسلم عليك، وقد أرسلت إليك هذا المنديل»، فقلب المنديل بين يديه، فإذا فيه كتابة كتبت بالدم تقول: «لم نكد نفرح بنجاتنا من ذلك الثعلب حتي عاد إلي مصاحبة والدي، وعاد إلي مطلبه الأول، وأنت تعلم أن الموت أهون علي من ذلك، فأدركني قبل فوات الفرصة، فإني مقيمة في دمشق.. ولعل حامل كتابي يزيدك إيضاحا»،

فلم يفرغ من قراءة هذه الكلمات حتي ارتعدت فرائصه، والتفت الي المرأة يستطلعها الخبر، فقالت : «إن مولاتي هند مقيمة في دمشق في منزل قرب كنيسة مريم، وقد بعثتني بهذا الكتاب، وأوصتني بأن أسلمه إليك يدا بيد في هذا الدير، وهذا هو الكتاب».

قال : «نعم قد قرأته، ولكنني لم أفهم حقيقة المراد، فهل ثعلبة الآن في دمشق؟» .

قالت : «كلا، بل هو مع سيدي جبلة في جند الروم بحمص»، قال : «وما الذى جمعه بالأمير جبلة، وقد كنت أعلم أنهما متخاصمان؟»..

قالت : «نعم إنهما كانا متخاصمين . ولكنهما تصافيا بعد انكسار جنودهما في وقعة اليرموك».

فقال حماد : «وكذلك يتصافي العدوان إذا أصيبا بسوء معا. وماذا جري بعد ذلك؟» .

قالت : «كنا مقيمين في دمشق مع سيدتي «هند» ووالدتها وسائر الحاشية كما ذكرت لك، فلم ندر إلا وكتاب وارد من سيدي الأمير «جبلة» إلي سيدتي الأميرة «سعدي»، يخبرها بقرب قدومه مع «ثعلبة» إلي الشام لعقد زواجه «بهند» ، في أثناء مهادنة العرب، فلم تتمالك سيدتي عند تلاوة الكتاب عن أن تخبر «هند» فبعثتني سيدتي في هذه المهمة، لتدبر إنقاذها، فإنها تفضل الموت علي الزواج به».

فلما سمع «حماد» ذلك الحديث اتقدت نيران الغيرة فى قلبه، ولكنه لبث برهة يفكر.. ثم قال للمرأة : «وأين ثعلبة الآن؟»..

قالت : «هو مع سيدي «جبلة» بجوار «حمص»، ولكنني أظنه سار قاصدا دمشق..» .

فازداد قلقا، ثم قال لها : «ارجعي إلي سيدتك، وأخبريها أني قادم إليها علي عجل».

قالت : «وماذا يؤكد لها أني لقيتك؟ ألا تذكر لها علامة تبين لها ذلك؟» .

ففكر قليلا ، ثم قال : «قولي لها إن صاحب الدرع والخاتم قادم إليك، وهذا يكفي» .

فودعته وركبت عائدة.

أما هو فوقف يفكر في حاله مع «عبدالله»، وتردد بين أن يعود الي «بصري» فيخبره بجلية الخبر، أو أن يسير توا إلي «دمشق» فلبث برهة في حيرة، فذهب إلي غرفة الراهب الشيخ، فحياه ، ثم قال له: «لقد جئتك بخبر أرجو أن تبلغه الي الأمير عبدالله» ..

قال الراهب : «وما ذلك؟» ..

قال حماد : «إذا لقيته فقل له إني سرت إلي دمشق لأمر هام، وسأعود إليه، فإذا استبطأني فليدركني هناك» .

قال الراهب : «سأفعل ذلك إن شاء الله» .

وودعه «حماد» وخرج علي جواده قاصدا «دمشق» .

★★★

وكان أن سافر أهل الصرح جميعا إلي البلقاء، فأقاموا هناك إلا «جبلة»، فإنه سار إلي الامبراطور «هرقل» في «حمص»، فأمره بإعداد الرجال من غسان وغيرهم، وكان «ثعلبة» قد ضعف أمره وأهمله «جبلة» لما قام بينهما من الضغائن بعد وفاة «الحارث»، ولكنه أصبح بعد ما عرفه من نسب «حماد» ميالا إلي مصالحه «ثعلبة» لعله يتزوج «هند» فيحفظ ملكه ، فلما احتاج إلي الرجال من غسان اضطر إلي استقدام «ثعلبة»، فكتب إليه فجاء برجاله وانضم إلي رجال «جبلة» ثم علم جبلة بقدوم المسلمين إلي «اليرموك» و«بصرى» ، فخاف علي أهله في البلقاء، فاستقدمهم إلي دمشق، وأسكنهم بيتا مع نساء بعض أصدقائه من رجال الروم هناك بقرب كنيسة مريم. واشتغل هو بحرب اليرموك، فلما قضي علي جنوده بالهزيمة، شعر بزيادة الميل إلي مصافاة ابن عمه «ثعلبة».

فلما أصيب الغساسنة في اليرموك اجتمع «جبلة» و«ثعلبة» للنظر في أحوال الجند، وكان «ثعلبة» قد ذاق مرارة الجفاء، فلما رأي من

عمه ذلك زاده رقة، فاجتمع قلباهما .. وكان ثعلبة أكثرهما سرورا بذلك ، وقد علم أنه إذا تزوج «هند» كان الوارث الوحيد لرياسة غسان جميعا، وكان قد درس أخلاق عمه «جبلة» وعرف ميول قلبه، فتظاهر بما يطابق هذه الميول، حتي حبب إليه مصاهرته ووعده «بهند» .

أما «جبلة» فإنما حمله علي مصاهرة «ثعلبة» استبقاء الحكومة في بني غسان وإنقاذها من المناذرة، فلما تحقق «ثعلبة» من رضاء عمه عنه، سأله عن يوم الزواج، فقال «جبلة» : «أري أن يكون بعد انقضاء الحروب بيننا وبين المسلمين» .

فقال «ثعلبة» : «ولكن تلك المدة ليس لها حد معروف، وما أدرانا متي تنقضي؟ وكيف يرتاح بالنا وأهل البيت مقيمون في دمشق، ونحن لا نستقر علي حال؟ فاذا رأي عمي أن نستعجل الزواج كان ذلك أقرب الي جمع الشمل» .

فأجابه «جبلة» الي طلبه ، وكان بجوار حمص بعد وقعة اليرموك ، فكتب «جبلة» الي «سعدي» ينبئها بنتيجة مادار بينه وبين «ثعلبة» ، وبين السبب الذي حمله علي اختياره دون «حماد» ، فقال : «بزواج هند بثعلبة نستبقي الملك في الغساسنة ونخلصه من خطر الوقوع بين أيدي المناذرة» ، وأوصاها بالتأهب لعقد الزواج قريبا، ولم تتم «سعدي» قراءة ذلك الخبر حتي دمعت عيناها لما تخشاه علي «هند» ، وأدركت سبب تغير زوجها علي «حماد» ، وندمت علي ما فرط منها من إطلاعه علي حقيقة نسبه، فرأت أنها مطالبة بإنقاذ ابنتها من مخالب «ثعلبة» والوقت ضيق لا يتسع للصبر، وكانت هند تلاحظ عليها ارتباكا، وتسألها عن السبب فتتجاهل، فرأت أخيرا أن تستقدم «حمادا» علي عجل، و«هند» لا تعلم، فإذا حضر شاورته في الأمر، فكتبت الي «حماد» الكتاب بمداد من الدم، تحثه علي القدوم .

حصار «دمشق»

وما أن غادر «حماد» «بصرى» حتي أدرك صعوبة المسير إلي الشام وحده، وهو لم يطرق تلك البلاد إلا قليلا. فلم ير له بدا من اصطحاب

دليل.. فاختار دليلا من سكان «بصرى» فسار شمالا يقطع الجبال .. والوديان والسهولة والغابات، لاينام إلا قليلا.. وبعد بضعة أيام أشرف صباحا علي بساتين واسعة الأطراف، فيها من المشمش والرمان واللوز والبرتقال والخوخ والسفرجل والكرم وسائر أصناف الفاكهة، تجري بينها الأنهار، وظهر له من وراء تلك البساتين أبنية توارت وراء الغبار، فوقف ينظر الي ماحوله وقد تعب جواده، فسأل دليله عن تلك الأبنية، فقال : «دمشق مشهورة بغيطانها وبساتينها ومياهها، وما تلك الأبنية التي تبدو لك من وراء الأشجار إلا دمشق مقر والي الروم» .

فقال حماد: «وماهذا الغبار الذي يكاد يحجب المدينة عنا؟»

قال : «لعله غبار جنود الروم ، أو هو غبار جنود المسلمين ، فقد بلغني أمس من بعض القادمين من جهات اليرموك أن المسلمين لما غلبوا الروم هناك قصدوا إلي دمشق، ولا يبعد إنهم جاءوها وحاصروها» .

فاستعاذ «حماد» بالله، وخاف أن يكون كلام الدليل صوابا، فيمتنع عليه الدخول إلي المدينة، وربما وقع في أيدي المسلمين أسيرا، ولا يدري ما ينجيه منهم، فتذكر «سلمان» لاحتياجه إليه في تلك الحال، وندم لمجيئه منفردا، ولم يجد من يستشيره ويعتمد عليه غير ذلك الدليل، وكان الدليل شابا من عرب الغساسنة المقيمين في «بصرى» وهو في العشرين من عمره، يتكلم العربية واليونانية ، فقال له «حماد» : «أتعرف دمشق؟ وهل دخلتها قبل الآن؟» .

قال : «أعرفها جيدا، وقد أقمت فيها أياما، وكثيرا ما جئنا مع والدي للوفاء بالنذور أو الصلاة في كنيسة ماري يوحنا المعمدان» .

فقال حماد: «وهل تعرف كنيسة مريم؟» .

قال : «نعم أعرفها ، فإنها في شارع مستقيم طويل يقطع المدينة من طرفها الشرقي إلي الطرف الغربي، ويقال له «باب الجابية» .

فاستبشر حماد باصطحاب هذا الدليل ليستعين به في الوصول الي منزل «هند» . وبعد أن وقفا برهة، ركب «حماد» وسار الدليل في

ركابه.. وسارا في الغيطان والأشجار تظللهما. ولم يسيرا قليلا حتي أشرفا علي مرتفع أطلا منه علي سهل أمام «دمشق» ، فرأيا الخيام والأعلام والخيول والرجال قد ملأت ذلك الفضاء .

فأنعم «حماد» نظره فإذا هي أعلام المسلمين وخيامهم، ومرابض الجمال ومساكن النساء، ، فعلم أنه لن يستطيع الدخول الي دمشق، وخشي أن يسير إلي معسكر العرب لئلا يشتبهوا فيه فيلحقوا به ضررا، فوقف حائرا لا يدري ماذا يفعل، وفيما هو يهم بسؤال الدليل عن سبيل يدخل به المدينة، سمع وقع حوافر خيول علي الحصي في جدول جف ماؤه بين الأشجار، فحول عنان جواده نحو الصوت، وتهيأ للدفاع، فلم يكد يقف هنيهة حتي سمع صوتا يناديه باسمه، فخفق قلبه لاستئناسه بذلك الصوت، فأجابه للحال: «من أنت؟»، ثم أدرك أنه صوت الأمير «عبدالله» لكنه استبعد أن يراه هناك ، وعهده به أنه مقيم في «بصري»، ثم مالبث أن رآه قادما علي جواده ، ووراءه فارسان عربيان، فتحقق أنه هو بعينه، وأحس بانفراج الأزمة، واستغرب مجيئه.. فإذا «بعبد الله» نزل من علي جواده وضم «حماداً» وقبله.

فقال حماد : «ما الذي جاء بك يا أبي ؟».

قال : «جئت لحراستك يامولاي، وقد علمت من الراهب الشيخ أنك ذهبت إلي الشام، فأسرعت إليك لعلمي بما قد تلقاه من العراقيل في سبيل الدخول إليها، لأني رأيت العرب يحيطون بالمدينة، وقد حاصروها حصارا شديدا، ولولا سابق معرفتي «بخالد بن الوليد» لما تمكنت من خدمتك، وقد مضي علي يومان أطوف هذه البقاع ومعي هذا الفارسان نتوقع وصولك، لنسير بك الي خالد وقد أعطانا الأمان»..

فشكر له «حماد» ، وسأله عن حال المدينة، فقال له «عبدالله»: «إنها في حصار شديد لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد.. وأنت، ما الذي جرك الي هذه المخاطرة؟» فقص عليه حكايته، وأطلعه علي كتاب «هند».

ففكر «عبدالله» أن يثني «حماداً» عن «هند» ولكنه علم أنه لن يصادف منه إصغاء، فضلا عن أنه قد يلجأ إلى التستر في أعماله،

فشجعه وقال له : «لا بأس عليك ياولدي، فإن «ثعلبة» لم يستطع دخول المدينة ولن يستطيع» .

فقال حماد : «ومن الذي أخبرك بعدم دخوله ؟» .

قال عبدالله : «لم يخبرني أحد .. ولكنني عرفت أن الغساسنة كلهم وفيهم «جبلة» و«ثعلبة» مقيمون في «حمص» خوفا من هجمات المسلمين، وكان «هرقل» قد أنقذهم مع جند الروم لنجدة دمشق، فلم يستطيعوا دخولها فعادوا علي الأعقاب» .

قال حماد : «وما العمل الآن ؟» .

قال عبدالله : «هلم بنا إلي معسكر خالد، فإنهم يتوقعون عودتنا لنقيم بينهم ونكون في ذمتهم، إلا إذا أحببت الرجوع إلي «بصري» فإن ذلك أكثر أمناً لنا وأبقي» .

فصمت «حماد» ولسان حاله يقول : «كيف أبتعد عن دمشق، وهند محاصرة فيها ؟» ، فابتدره «عبدالله» قائلا : «لا بل أري أن نقيم مع المسلمين، لعلنا نستطيع أمرا ننقذ به «هند» من الخطر» ، فبرقت أسرة «حماد» لما آنسه من مجاراة «عبدالله» ، فقال: «نعم الرأي رأيك، فهلم بنا» ، وهموا بالمسير نحو «دمشق» .

فلما وصلوا إلي المعسكر أتوا خيمة «خالد» ، فدخلها «عبدالله» و«حماد» بلا معارض، وكان «خالد» جالسا في صدر المكان، فرحب بهما ودعاهما للجلوس، فنظر «حماد» الي من في الخيمة، فرأي «رومانوس» صاحب «بصري» إلي جانب «خالد» وقد تعمم بالعمامة ولبس الرداء العربي، وكان «خالد» قد استقدمه معه ليترجم بينه وبين الروم، فتهيب «حماد» من مجلس «خالد» ومن أحاط به من الأمراء، وبينهم جماعة كبيرة لم يعرفهم، ولكنه رأي الشجاعة والإقدام تلوحان علي وجوههم ..

ثم تقدم «عبدالله» الي «خالد» فعرفه «بحماد» ، فأثني «خالد» عليه وقال :«إن غلامك سيزداد زينة بالإسلام» ، فسكت «عبدالله» ولم يجب ..

أما «حماد» فلم يكن همه إلا «هند» وحالها في دمشق، ولو لم يطمئنه «عبدالله» ببعد «ثعلبة» عنها لما صبر علي البقاء هناك، ولكنه مافتئ يفكر في حيلة يدخل بها المدينة ليري «هند» ويطمئنها ويسعي في إنقاذها .

وبعد قليل استأذن «عبدالله» «خالدا» في الخروج الي خيمة أعدت له، فخرج وخرج «حماد» معه حتي أتيا الخيمة، فقال «حماد» : «وما الرأي الان؟ إني أري «هند» في خطر، ونحن في مـأمن، فـلابد من حيلة ندخل بها المدينة».

قال : «تمهل ياسيدي، لعلنا نوفق إلي ذلك في الغد». وباتا تلك الليلة، وأفاقا في الصباح علي أصوات الأذان والصلاة، فقال «عبدالله» : «لا أرانا نستطيع شيئا مادمنا في هذا المعسكر ، هلم بنا الي معسكر «أبي عبيدة» ، لعلنا نصادف خيرا فمشيا ، حتي بلغا معسكر «أبي عبيدة» ، فدعاهما إلي خيمته، وكان «عبدالله» قد عرفه وسمع بسمو أخلاقه . فبعد السلام والترحاب قال عبدالله : «ألا تري يا مولاي مخاطبة هؤلاء الروم في أمر الصلح ، عسي أن يسلموا ويكفوكم مؤونة القتال» .

قال أبو عبيدة : «إني أرغب الناس في ذلك، ولكن «خالدا» يطرب لمقارعة السيوف ومصادمة النبال» .

فقال عبدالله : «وما الضير لو أنفذت إليهم أحدا يستطلع رأيهم وأنت رئيس هذا الجند والمتصرف فيهم ؟» .

فقال أبو عبيدة : «لا أري بأسا في ذلك، إلا أنهم قد يحسبوننا خائفين» ..

قال عبدالله : «أرسلوا من يستطلع رأيهم، اذ قد يكونون راغبين في الصلح، وهم يحسبونكم لا ترضون به، فإذا سار إليهم أحد فليكن كلامه من عند نفسه » .

قال أبو عبيدة : «ومن لنا بمن يعرف لغتهم ؟» ..

قال عبدالله : «ولا أظننا نعدم وسيلة » وكان «حماد» قد تعلم شيئا من اليونانية في أثناء إقامته في «بصري»، وكاد «عبدالله» بأن يشير

بإرسال «حماد» ، ولكنه خاف عليه، فلبث صامتا، فابتدره «حماد» قائلا : «إني اقدم نفسي لهذه المهمة» ..

فقال «أبو عبيدة» : «ولكنك تسير إليهم سرا، فإذا فزت بمهمتك حقنت الدماء علي يدك، وإلا فإننا باقون علي حالنا من الحرب. واعلم أن قـائد جند الروم هناك رجل اسـمـه «تومـا» هو صـهـر الامـبـراطور «هرقل» فسر إليه واستطلع رأيه من قبلك، فإذا رأيت فيه ميلا إلي التسليم فأخبرني» .

فسر «حماد» بمهمته، وخرج من خيمة «أبي عبيدة» و«عبدالله» معه، فناداهما «أبو عبيدة» فعاد، فقال «لحماد» : إذا سرت أنت بقي والدك عندنا ،فرضيا، وخرج «حماد» وحده، وبقي «عبدالله» هناك.

أما «حماد» فإنه حمل علما أبيض، وركب جوادا، وأسرع نحو المدينة حتي رأي جماهير الناس عليها، وفيهم القسوس بصلبانهم والجند بأعلامهم، ورأي بعضهم يهم بأن يرميه بالنبال، فأشار إليهم عن بعد أنه إنما جاء مسالما، فكفوا عنه، حتي إذا دنا من الباب ناداهم بلغتهم أنه يريد الوصول الي رئيسهم..

شئون دمشق الداخلية

نزل إلى حماد جماعة فتحوا له، فدخل بجواده وسلاحه، فأحاط به الرجال، فتهيب ذلك الموقف، ولكنه تجلد، وطلب أن يري البطريك «توما» فقالوا إنه في قصره بالقرب من كنيسة ماري يوحنا .. فنزل من علي جواده ومشي في شارع عريض على استقامة واحدة، ولا يكاد يرى آخره، وأرضه مرصوفة بالحجارة، ولم يكن «حماد» قد دخل الشام قبل ذلك الحين، فرأى فيها من العظمة ودلائل المدنية ما لم ير مثله فى «بصرى» ..

فمازال سائرا وحوله الحراس، وأهل المدينة يطلون من الشرفات والنوافذ ينظرون إليه ويتحدثون فى أمره، وهو يلتفت يمنة ويسرة لعله يرى «هند» بينهم، وكلما وقع نظره على أنثى ظنها هى، وكان يخترق الصفوف ببصره لعله يرى قبة أو كنيسة على أمل أن تكون كنيسة مريم

حيث تقيم «هند»، حتى مر بكنيسة علم من بعض حديث القوم أنها كنيسة مريم، فخفق قلبه وحدقت عيناه وهو يلتفت إلى ما حولها من النوافذ، فرأى جموعا، ولكنه لم ير «هند» بينهم، فسار والناس حوله يتحدثون بلغتهم.

وبعد أن ساروا برهة انعطفوا إلى شارع آخر فآخر، حتى وصلوا إلى باب كبير يحف به الخدم، فوقفوا عنده، فعلم أنه القصر، فأرسلوا بعض الحرس يخبر البطريرك بقدوم الرسول، فأمر بإدخاله عليه، فجردوه من سلاحه.. ثم دخلوا به إلى صحن الدار، فدعوه إلى الجلوس ثم دخلوا به ريثما يخرج إليه البطريرك، فجلس يتوقع قدومه وهو يهون على نفسه ويتجلد حتى سمع وقع أقدام كثيرة، ورأى أهل القصر فى هرج وتزاحم، فعلم أن الرجل قادم، ثم رآه وقد دخل القاعة فإذا هو طويل القامة عظيم الهامة كثير الهيبة، فحالما رآه «حماد» وقف إجلالا له، وتقدم نحوه متأدبا. فنظر «توما» إليه بعينين حادتين ، فهاب «حماد» منظره، وحياه تحية الملوك، وصبر حتي جلس وأمر له بالجلوس فجلس «حماد» وهو يفكر فيما يبدأ به الحديث.

فابتدره البطريرك قائلا: «ألعلك من هؤلاء العرب المغرورين»، قال «حماد»: « كلا يا مولاى، إنى غريب الديار، وقد وقعت بين أيديهم بالمصادفة».

قال البطريرك: «لقد لاح لى ذلك من شكل لباسك، فإنى أراك حسن اللباس، وهؤلاء على ما أعلم حفاة عراة، هل أنت على دينهم الجديد؟»

قال حماد: «كلا يامولاى، إنى على دين النصرانية»، قال ذلك واستخرج من بين أثوابه صليبا من الذهب معلقا بسلسلة فى عنقه.

قال البطريرك: «ألعلك من الغساسنة؟»

فقال: «إنى غريب الديار، ولكننى مقيم فى «بصرى» الآن»..

فقال البطريرك: «ومن أى البلاد أنت؟»

فتذكر «حماد» الصلح الذى أبرم بين الفرس والروم على أثر الحروب الأخيرة، فقال: «إنى من أهل العراق، ولما تم الصلح بين ملكنا وجلالة الامبراطور هرقل قدمت إلى البلقاء».

فقال «توما»: «وما الذى جاء بك إلينا؟».

فقال حماد: «إذا أذن مولاى فى خلوة بسطت له فيها رأيى»، وكان فى مجلس البطريرك بعض الحاشية، فأشار إليهم فخرجوا، فقال «حماد»: «أقسم لمولاى بحرمة الصليب أنى إنما جئت إليه أنوى له ولدولة الروم خيرا».

قال «البطريرك»: «لقد صدقت، قل ما فى نفسك»..

قال «حماد»: «إنى رأيت معسكر هؤلاء العرب، وخبرت صبرهم فى ساحة القتال، وتفانيهم فى سبيل الجهاد، فخفت أن يطول الحصار، وقد عرفت قائد جند العرب الأكبر، وهو رجل ميال إلى السلم، راغب فى حقن الدماء، فقلت فى نفسى: لعلى إذا توسطت فى أمر الصلح بينكما أن أفعل خيرا، فجئت لأعرض هذا الأمر عليك»، فلم يكد «حماد» يتم حديثه حتى بدت مظاهر الغضب على وجه «توما» وقد قطب حاجبيه، وتململ فى مقعده، ونظر إلى «حماد» بعينين يكاد الشرر يتطاير منهما، وقال: «وحرمة الصليب وصاحب هذه الكنيسة (وأشار إلى كنيسة مارى يوحنا) ورأس الامبراطور «هرقل»، لو لم تسبق إلى إقناعى بنصرانيتك لارتبت فى حقيقة مقاصدك. كيف تدعونا إلى صلح قوم ساقهم الفقر إلينا وغرهم الجهل بمنازلتنا؟ أتخالهم يحسبوننا مثل حامية «بصرى» التى خانت ملكها واستسلمت لهم؟، ألم تكن لهم عبرة برجوعهم عن أسوار هذه المدينة خاسرين منذ بضعة أسابيع»، ثم نهض وهو يقول: «إنى سأعلمهم كيف يحارب الروم منذ اليوم..»، قال ذلك ويده على قبضة سيفه، وهو يمشى فى القاعة غضباً، فصبر حماد نفسه وكظم غيظه وقال: «إن الصلح لا يحط من قدر رجال الحرب ، ولا أخال مولاى يحسبنى أجهل بطش الروم وشدة بأسهم، ولكننى ظننت فى الصلح حقنا للدماء، فإذا كنتم ترون الحرب فأنتم أصحاب الأمر».

وكان البطريرك لايزال واقفا، فلما سمع قول «حماد» جلس على مقعد آخر، وقال: «لولا علمى بحسن نيتك لما أبقيت عليك، ولكنك مع ذلك ستبقى فى حاشيتى حتى ترى عاقبة الغرور، وترى حال هؤلاء العرب فى حربنا»..

فاستعاذ «حماد» بالله من هذا السجن، وكان فى حسابه أن يطلق سراحه فيفتش عن «هند» فندم على مجيئه، وظل صامتا، فسمع البطريك ينادى أحد رجاله.. فلما حضر أوصاه أن يحتفظ بالرسول ويستبقيه فى حاشيته ريثما يأمره أمراً آخر. قال ذلك وخرج مسرعا غاضبا، وسيفه يصلصل على البلاط وراءه، وبقى «حماد» وحارسه فى القاعة برهة، ثم أشار الحارس إليه فخرجا واختلط «حماد» بالحاشية كواحد منهم لا يؤذن له فى الخروج من القصر إلا معهم، فلبث يصبر نفسه وينتظر.

وفي مساء ذلك اليوم، سمع أهل القصر يتحدثون بعزم «توما» على الصلاة فى كنيسة مارى يوحنا فى صباح الغد، وهو صباح الأحد، وأنه دعا رجال حكومته وأعيان المدينة للاجتماع فيها، فأمل «حماد» أن يتنسم خبرا عن «هند» هناك.

كنيسة مارى يوحنا

ولم يكد يفيق فى صباح غد حتى سمع دق النواقيس فى سائر كنائس المدينة، ورأى أهل القصر يتهيأون للذهاب إلى الكنيسة، فسأل حارسه عن ذهابه فقال: «تعال معنا، أن الصلاة لا تمنع عن طالبها»، ولم تمض برهة حتى خرج توما فى أحسن ما يكون من اللباس، فمشى وحوله الأعيان والوجهاء ورجال الدولة بأفخر الملابس من الحرير المزركش، وكانت الكنيسة على مقربة من القصر، فلم يمض إلا قليل حتى بلغوها، فإذا هى محاطة بسور عظيم الارتفاع، فدخلوا منه إلى باب الكنيسة الجنوبى إلى صحن الكنيسة، وكان «حماد» كيفما التفت تمثلت له عظمة الروم فى إبان مجدهم.

ولما دنا وقت الصلاة رأى حماد الناس وقد انتظموا فى عقد الصلاة وقام الأساقفة بمباخرهم وصلبانهم، وعلت أصوات الترتيل والترنيم، ونظر حماد إلى الجماهير فرآهم وقوفا وقد ولوا وجوههم قبل

المشرق، وفى مقدمتهم، «توما». ولما انقضت الصلاة حول «توما» وجهه نحو الجماهير وقد تغير منظره وهو يعد كلاما يقوله، فأصغى الناس، وقال ما معناه: «اعلموا يا معشر النصرانية أن مولاى جلالة الامبراطور «هرقل» قد كتب إلينا يستحثنا على دفع هؤلاء الأعراب عن أسوار دمشق وإخراجهم من بلاد الشام فقد ألقوا الفتن فيها، وما هم بالحقيقة إلا قوم جياع عراة ساقهم فقر بلادهم وجدب أرضهم إلى التماس الغزو والنهب من خيرات الشام، وقد أطمعهم فيها ما لاقوه من ضعف حامية «بصرى» وقائدها «رومانوس» اللعين الذى قاده ضعفه إلى التسليم، أما أنتم فإنكم رجال أشداء قائمون على الولاء فلا يهمكم من أمر هؤلاء شئ..، وما هؤلاء العرب بشئ يذكر إذا نحن اتحدنا، وإلا فإن العاقبة وخيمة، فإذا رأيتم الخروج إليهم خرجنا وأذقناهم مر العذاب»..

فقال رجل واقف بالقرب منه: «مالنا وللخروج إليهم ونحن آمنون في أسوارنا؟ فلنهملهم حتى يملوا الإقامة فينقلبوا على أعقابهم؟»..

فتأمل «حماد» فى حال ذلك الجمع، وفيهم خير رجال الدولة، فرأى التردد والخمول مستولين عليهم، وكان يحسب أن كلام «توما» يثير فيهم حمية، فإذا هو لم يسمع منهم إلا تمتمة، وقد فقدوا الحمية بما انغمسوا فيه من الترف والبذخ والرخاء، وفسدت أخلاقهم، فقارن ذلك بما آنسه فى جند العرب من الأنفة وعزة النفس والنشاط ووحدة الكلمة، فتمثلت له عاقبة الأمر جليا، وأيقن أنها وبال على الروم إذا هم لم يصالحوا العرب، فلبث ينتظر ما يأتى به القدر.

وفى صباح الغد خرج «توما» ومعه رجاله إلا الحارس فإنه بقى فى القصر و«حماد» معه، وآنس فى خروجهم حركة غير مألوفة، فاستطلع الخبر، فقال الحارس: «إن توما سار إلى الأسوار يرمى العرب منها بالنبال».

فسأل «حماد» عن حاله فقيل: «أصيب بنبلة من نبال العرب فقأت عينه وأنه تشاءم بذلك كثيرا»، فقال «حماد» فى نفسه: «فعسى أن يرجع إلى صوابه ويرغب فى الصلح».

باب الفرج

ومضت بضعة أسابيع والحرب قائمة بين الجانبين، والروم ينتظرون نجدة من «هرقل»، والنجدة لاتصل إليهم، وفى ذات صباح كان «حماد» جالسا فى إحدى غرف القصر يائسا فجاءه رسول يستدعيه إلى «توما» ، فسار إليه وقلبه يخفق مخافة أن يكون فى الدعوة ما يدعو إلى الخطر.

فلما دخل عليه رآه جالسا على سريره مقطب الوجه، فحياه فأجلسه «توما» إلى جانبه، فآنس «حماد» منه رقة لم يعهدها فيه. ثم أشار «توما» فخرج كل من فى الغرفة، ثم قال: «دعني أقص عليك خبرا أقلقني، وهو حلم رأته امرأتى فى منامها البارحة وهى حامل، أما الحلم فإنها رأت الدماء تتدفق على أسوار دمشق، والأسواق مزدحمة بالقتلى، فأفاقت من نومها مذعورة، فقصت علىّ الحلم وهى ترتعد وطلبت منى أن أقبل صلح هؤلاء العرب حقنا للدماء، ولقد ساءني اقتراحها، لأنى راغب فى الحرب إلى آخر نسمة من الحياة، ولكنها ابنة الامبراطور صاحب الأمر والنهى، فضلا عن منزلتها عندى وهى حامل، وأذكر أنك أخبرتنى عن «أبي عبيدة» قائد فرقة باب الجابية، وأنه ميال إلى السلم، فهل تظن أننا إذا كلمناه فيه يفعل ويحفظ عهده؟».

فاستبشر «حماد» بذلك، وقال: «لاريب عندي في حفظه العهد إذا عاهد».

قال توما: «أتذهب إليه وتستطلع رأيه فى ذلك سرا وتعود بالخبر؟».

قال حماد: «أفعل ذلك مأموراً طائعاً، فائذن بمن يرشدنى إلى الطريق، ويخرج بى من الباب، وأنا أسير إلى الرجل وأخاطبه».

قال توما: «قد أذنا لك فى ذلك، ولكننى أشترط فى أمر الصلح شرطا لابد منه، أريد من هؤلاء العرب إذا دخلوا المدينة أن يحفظوا الأرواح، وأن يتركوا لنا كنائسنا ولا ينقصوا منها كنيسة».

فقال حماد: «لا أظنهم يخالفوننا فى ذلك، وعلى كل حال فإنى أسير إليهم بالأمر، وأعود إليك بالجواب». وكان «حماد» يكلم «توما» وهو متعجب لرضاه بهذا الحل. على أن خيال «هند» مازال نصب عينيه، فخطر له أن يغتنم تلك الفرصة للاستعانة به على تسهيل زواجه، وقال فى نفسه: «لا أخالني أرى رجلا أقدر على مساعدتى من صهر الأمبراطور، وهو الآن فى حاجة إلىّ، فإذا استعنت به ووعدني فقوله نافذ على جبلة وغيره».

فتوسم «توما» فى «حماد» توقفا وترددا، فقال له: «مابالك تتردد؟ ألعلك خفت الذهاب إلى العرب؟»، قال: «كلا يا مولاى، فإنى أقتحم المخاطر فى سبيل إنفاذ أوامرك، ولكن لى أمرا يهمنى ليس هذا محل الكلام فيه، على أننى لا أرى بدا من الاستعانة بك عليه، وهو من أسهل الأمور عليك، فاجعل مساعدتى فى إتمامه مكافأة لى إذا فزت بعقد الصلح على ما تريدون».

فقال توما: «وماذا عسى أن يكون طلبك؟».

قال حماد: «أخاف إذا ذكرته أن تضحك منى، ولكن الأمر يا مولاى قد أقلقنى، ولا أرى بدا من الاستعانة بك، فاعذرنى».

قال توما: «قل.. ما هو؟».

قال حماد: «أتعرفون الأمير جبلة الغسانى؟».

قال توما: «أليس هو ملك الغساسنة حليفنا؟».

قال حماد: «نعم يامولاى، هو، هو بعينه».

قال توما: «وما خبره؟».

قال حماد: «أقول بالاختصار، أنى خطبت ابنته «هند»، ثم إن ابن عم لها يقال له «ثعلبة» يسعى فى أن تكون له، وقد قبله والدها. ولكن

الفتاة لا تريده. ونظرا لما أعهده من سلطانكم على «جبلة»، أرجو أن توعزوا إليه أن يدع لي الفتاة».

فتبسم «توما» وقد تذكر شبابه وزمن حبه، فعذر «حمادا» وطيب خاطره، وقال: «إنه أمر سهل، ولك علينا قضاؤه»، فانبسطت نفس «حماد» ومال إلي مشاهدة «هند» وتبشيرها بذلك الوعد، وهم باستئذان «توما» فى أن يمر بكنيسة مريم أثناء ذهابه، فإذا هو قد ابتدره قائلا: «أرجو أن تسرع في مهمتك، فتسير حالا إلى أبى عبيدة لتفاوضه، فإذا عقد الصلح وهدأت الأحوال زففنا إليك «هند» رضى والدها أو لم يرض»..

فشكره «حماد» شكرا جزيلاً.. وقد صمم فى نفسه على أن يحتال فى المرور خلسة، ثم سمع «توما» ينادى اثنين من حاشيته، فأتيا ،فقال لهما: «أعدا مركبة من مركبات القصر، احملا عليها هذا الشاب العراقى إلى باب الجابية حالا، وافتحا له الباب، وليركب جواده هناك، وأما أنتما فانتظرا رجوعه، فمتى عاد ارجعا به إلى هنا» فقالا: «سمعا وطاعة». وخرجوا جميعاً، وحماد آسف لمسيره، إذ لا يتأتى له الوقوف عند الكنيسة.

وبعد برهة أعدت المركبة فركبوها، فجرت مسرعة، حتى إذا دنت من كنيسة مريم خفق قلب «حماد» وحدقت عيناه، وهو يلتفت نحو النافذة والشرفات، لعله يرى «هند» أو أحداً من أهلها، فخاب رجاؤه، وتجاوزت المركبة الكنيسة، ولكنه ما لبث أن وصل إلى باب الجابية، فوقفت المركبة وكان جواده هناك، فركبه وخرج والعلم معه حتى أتى معسكر «أبى عبيدة»، فلم يستوقفه أحد من العرب، فسار توا إلى خيمة «عبدالله» وهى فى الطريق، فرآه جالسا حزينا لاشتغال باله، فحالما وقع نظره عليه نهض مسرعاً، وضمه إلى صدره، وسأله عن سبب غيابه، فقص عليه الخبر فحمد الله على سلامته. ثم جلسا برهة يتحادثان فى

أمر جبلة وجنده، فقال عبدالله «هيا بنا الآن إلى «أبى عبيدة»..» ثم نهضا معا حتى أتيا خيمته، فرحب بهما، فقص «حماد» ما اشترطه «توما» من أمر الكنائس والأموال، فقال «أبوعبيدة»: «لقد قبلنا ذلك، فليرسل من يعتمدهم من رجاله لعقد الشروط».

فودعهم «حماد» وعاد إلى دمشق وقد مضى معظم النهار، ولما وصل إلى القصر، رأى أهله فى هرج وضجة، فسأل عن السبب فقيل له: «أن امرأة «توما» فى حالة ولادة و«توما» عندها ينتظر ساعة الولادة» فقال: «ابعثوا إليه من يخبره برجوعى».

فأخبروه فخرج إليه وأمارات البغتة ظاهرة على وجهه، فقال: «ماخبرك؟» فقال: «إن الأمير أبا عبيدة قبل الصلح، فأرسل من تعتمده لعقده»، فأمر مائة من كبار القصر أن يخرجوا فى صباح غد ومعهم «حماد»، وقال لهم: «إنى مشتغل بابنة الامبراطور من آلام الولادة، وعسى أن يأتى الفرج قريبا».

صلح الشام

وكان الليل قد أسدل نقابه، فباتوا تلك الليلة وأصبحوا وقد تهيأ مائة منهم بالثياب الرسمية، وحملوا الأعلام والصلبان، وساروا حتي أتوا باب الجابية، وكان «حماد» أكثر الناس رغبة في ذلك الصلح، أملا فى قرب الوصول إلى «هند»..

فلما وصلوا إلى الباب، كان بعض العرب هناك وعلى رأسهم «أبوهريرة» ينتظرون وفد الروم.. فأخبرهم «حماد» بما أتوا من أجله، وفتحوا الأبواب، وخرج الوفد بأعلامهم وصلبانهم، ومشي «أبوهريرة» ورجاله في مقدمتهم حتي أتوا معسكر «أبى عبيدة»، فأوعز إليهم «أبو هريرة» أن ينزعوا الصلبان فنزعوها، حتي وصلوا إلى خيمة «أبى عبيدة»، فاستقبلهم بالحفاوة، وعقد مجلسا أمضوا فيه الشروط، وفي

جملتها أن يتركوا الكنائس على ماهى عليه، فكتب لهم «أبو عبيدة» كتاب الصلح والأمان، ولم يسم فيه اسمه، ولا أثبت شهودا، فتناولوا الكتاب ودعوه إلي صحبتهم ليدخلوا المدينة معا، فقام أبوعبيدة ومعه خمسة وثلاثون من أعيان الصحابة، وسار الجميع وفيهم عبدالله وحماد، فلما وصلوا إلي باب المدينة، وقف «أبوعبيدة» وقد تذكر أمرا مهما، وذلك أنه لسلامة نيته رضي بالصلح وقبل دخول المدينة مع عدوه ولم يخامره ريب من غدر أو نحوه، ولكنه لما وصل إلي الأبواب ورأي الأسوار وفوقها الجند بالأسلحة تخوف وتحوط، فقال لمن معه من الروم، أننا نطلب منكم الرهائن قبل الدخول، فيبقي منكم أناس رهنا عندنا، حتي إذا حدث غدر ذهبوا ضحية الغدر»، فتركوا بعضا منهم، وسار الباقون حتي دخلوا من الأبواب، وأقبلوا علي الشارع المستقيم، وقد تزاحم فيه الناس وفي مقدمتهم القسوس والرهبان، فلما دخل «أبو عبيدة» استقبلوه بالأناشيد، واعتذروا عن تخلف البطريرك «توما» لاشتغاله بأهل بيته، ثم مشوا، وقد رفعوا الأناجيل والمباخر، وفيها البخور يتصاعد دخانه حتي حجب عنهم أواخر الشارع، فساروا يهتفون شكرا لله علي حقن الدماء، وفوق رءوسهم تخفق أعلام المسلمين والروم معا.

وكان الدمشقيون يطلون من النوافذ ومن فوق السطوح والشرفات رجالا ونساء وأولادا، وكلهم فرحون بنجاة أنفسهم وأموالهم، لأن أهل البلد أكثر الناس نفورا من الحرب..

وأما «حماد» فكان مشتغلا عن تلك الضوضاء يعلل نفسه بقرب اللقاء، و«عبدالله» إلى جانبه، وكان الموكب سائرا ببطء، فنفد صبر «حماد» وهو يتطلع من خلال الأعلام والصلبان إلي كنيسة مريم عن بعد، وقد عزم علي ترك الموكب ودخول الكنيسة خلسة ليرى «هند» ويبشرها بانفراج الأزمة.

خصام أبى عبيدة وخالد

وفيما هو فى ذلك تراءي له في آخر الشارع جموع قادمون نحو الموكب فرارا من أناس يطاردونهم ، فأنعم نظره فرأي مع المطاردين أعلاما إسلامية ورجالا من المسلمين في أيديهم السيوف والرماح، وقد أمعنوا في الناس قتلا ونهبا، ورأي في مقدمة الأعلام علما أسود عرف أنه «العقاب» لخالد بن الوليد. ثم مالبث أن رأى الفارين يتقدمون حتي التقوا بالموكب عند كنيسة مريم ثم دنا خالد، فلما رآه أبو عبيدة عجب لأمره وناداه قائلا: «كف يا أبا سلمان قد فتح الله علي يدي المدينة صلحا، وكفي الله المؤمنين القتال».

صاح به «خالد» : «وما الصلح لا أصلح الله بالهم ؟ وأين لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف، وخضبت سيوف المسلمين من دمائهم، وأخذت الاولاد عبيدا، واستوليت على الأموال ؟»..

فقال «أبو عبيدة» : «أعلم أيها الأمير أنى ما دخلتها إلا بالصلح»..

فقال «خالد» : وأنا ما دخلتها إلا بالسيف عنوة، فكيف صالحتهم ؟»

فقال «أبو عبيدة»: اتق الله أيها الأمير، والله قد صالحت القوم، ونفذ السهم بما هو فيه، وكتبت لهم الكتاب».

فاعترضه «خالد»، وارتفع الصياح بينهما، وأصحاب خالد لايزالون يقاتلون ويغنمون.

وكانوا قد دخلوا المدينة من الباب الشرقي وهم لا يعلمون بصلح أبي عبيدة، ولكنهم اغتنموا الفرصة باشتغال «توما» ورجاله بالقصر والولادة.

فقال «أبوعبيدة» : «.. حقرت والله ونقض عهدى» ، وجعل يقسم علي المسلمين ألا يمدوا أيدهم نحو الطريق الذي جاء هو منه، حتي يرى ما يتفق هو و«خالد» عليه، فسكتوا عن أخذ شيء، واجتمع رجال المسلمين هناك، وتفاوضوا في الأمر، فتم الرأى علي قبول الصلح، علي

أن يخرج «توما» و«هربيس» (وهو وال علي نصف الشام من قبل «توما» ..) وبينما هم في الجدال جاء «توما» و«هربيس» وذكرا «أبا عبيدة» بالعهد، وقالا: «إذا أبيتم صلحنا فإننا نخرج من المدينة ونكون في ذمتكم نحن وأهلنا وأموالنا»، وبعد جدال طويل قبل خالد ذلك فأخذ «توما» يتأهب للخروج، وكان «حماد» في جملة الوقوف يسمع مادار من الحديث، فلما علم بخروج «توما» علي هذه الصورة ارتبك فى أمره، وعلم أنه لن يرجو منه نفعا، ولكنه عزم علي دخول الكنيسة ومقابلة «هند» فاستأذن «عبدالله»، فقال: «هلم ندخل معا» ..

وتركا الناس في تزاحمهم وعرجا نحو الكنيسة فإذا هي مقفلة، فالتمسا مفتاحها، فظن البواب أنهما يريدان بها ضررا، فذكرهما بالعهد، فقالا: «أننا لا نريد أمرا غير الزيارة، ونحن مسيحيون مثلكم»، ففتح لهما الباب، فسأل «حماد» عن قيم الكنيسة، فتقدم إليه قسيس شيخ، وكان مختبئاً في الهيكل، وهو يخشي أن يفتك به، فلما رأي الرجلين يرسمان علامة الصليب اطمأن باله، وسألهما عن مرادهما فتقدم إليه «حماد» وقبل يده وقال: «هل يقيم في هذه الكنيسة أحد من الغرباء؟»، قال القسيس: «لم تجر العادة أن يقيم الناس في الكنائس».

قال حماد: «إنما أريد أن أسأل هل يقيم أحد في بعض الغرف التابعة للكنيسة؟».

قال القسيس: «لا يا سيدي، ولكن أهل ملك غسان، وكلهم من النساء كن مقيمات عندنا ومعهم الخدم غير أنهم خرجوا جميعاً منذ بضعة أسابيع».

فاضطرب قلب «حماد»، وقال وقد ظهرت البغتة علي وجهه: «وإلى أين خرجوا؟».

قال القسيس: «لا أدرى، ولكن رجالا جاءوا من قبل الأمير جبلة

أقاموا هنا ساعات قليلة ثم خرجوا جميعاً».. فوقف «حماد» مدة صامتا وقد غلب عليه اليأس، وجعل يفكر ماذا عسى أن يكون سبب رجوعهم،.. فأعاد السؤال وأوضحه.

فقال: «هل تذكر أنهم خرجوا من هذا المكان قبل حصار المدينة أو بعده؟».

قال القسيس: «أظنهم خرجوا قبل الحصار»..

فبغت «حماد»، ونظر إلى «عبدالله» كأنه يستطلع رأيه، فقال عبدالله: «أظن الملك جبلة أرسل في طلبهم لما سمع قرب الحصار، فساروا إليه».

ففكر «حماد» في الأمر قليلا، فلاح له أن «هند» لا تخرج علي هذه الصورة ما لم تترك له خبرا أو إشارة، وخصوصا بعد أن كتبت إليه تستعجل قدومه إليها، فقال للقسيس: «ألا ترشدنا إلي المنزل الذي كان يقيم فيه أهل «جبلة» ؟».

الاستطلاع

قال القسيس: « سمعاً وطاعة» وخرج بهما من أحد أبواب الكنيسة إلي زقاق ضيق ، ساروا في الزقاق إلي منزل لايظهر من بابه وسوره أنه يليق بسكنى الملوك ، على أنهم عندما دخلوه تبينت لهم منزلته من الإتقان والزخرفة ، فوقف «حماد» وهو يتوقع أن يرى أحدا أو يسمع صوتا ، فلم يجد غير السكوت ، فمشى إلى باب رآه فى صدر الدار ، ففتحه وصعد فى سلم ومعه «عبدالله» فانتهى إلى صاله مشى فيها ، فأطل من نافذة مفتوحة تشرف على غرفة مقفلة الأبواب .. فرأى شبحا منزويا فى أحد الأركان يرتدى زى النساء ، فناداها، فصاحت وصوتها يرتجف قائلة : « ليس فى هذا المكان أحد من الرجال ، فأشفقوا على النساء».

فاختلج قلب «حماد» لما سمع ذلك الصوت وتنسم منه شخصا

يعرفه ، فقال : « لاتخافى يا خالة ، فما نحن من الأعداء ، ولانريد بك شرا ، وإنما نحن نسأل عن أهل ملك غسان» .

فلما سمعت المرأة صوت «حماد» دنت من النافذة وتفرست فيه، فعرف أنها خادمة «هند» التي حملت إليه الكتاب فى دير بحيراء ، وأما هى فلما عرفته قالت : « ألعلك سيدى «حماد» ؟ لقد كدت ألقى حتفى فى انتظارك» .

فقال : « افتحى الباب ولاتخافى » .

ففتحت الباب وهمت بيده فقبلتها ، وقالت وقد امتقع وجهها: « لقد خرج أهل الملك من دمشق منذ أسابيع ، وتركونى هنا في انتظار قدومك ، لأطلعك على خبرهم، فطال غيابك حتى يئست من لقائك ، ثم حوصرت المدينة ووقع ماوقع فيها من القتل والنهب . ولما سمعت وقع أقدامكم الآن حسبتكم من العرب الفاتحين ، فخفت واختبأت فى هذه الغرفة » .

فقال «حماد» : « أخبرينى يا خالة أين سيدتك هند ؟» .

قالت : «خرجت من دمشق مع والدتها وكل الخدم بأمر والدها قبل الحصار» .

قال : « وأين هى الآن ؟» .

قالت : « أظنها فى بيت المقدس ، لأن سيدى الملك بعد أن أمرها بالاستعداد للزواج من الأمير «ثعلبة» عاد فكتب إلى سيدتى «سعدى» أن تأتى سريعا إلى بيت المقدس ، لأنها أبعد عن الخطر من «دمشق» ، والظاهر أنه سمع بعزم العرب على حصارها ، فشق ذلك على سيدتى وخافت أن تأتى أنت ولا تعلم بمصيرها ، فاستبقتنى هنا لأقص عليك الخبر» .

فنظر «حماد» إلى «عبدالله» وقال : « ما الرأى أيها الأمير ؟» .

فقال : « لا حيلة لنا فى الواقع يا مولاى ، فإن مقامنا فى دمشق

لايجدى ، وأرى أن نغتنم أول فرصة للخروج إلى بيت المقدس» .

فالتفت «حماد» إلى المرأة وقال لها : «وأنت ماذا تفعلين ؟» .

قالت : « إذا بقيت حية فسأذهب إلى بيت المقدس» .

قال : « إن الحرب قد انتهت ، وتم الصلح ، فلابأس عليك ، ولكننى لا أظنك تستطيعين الذهاب وحدك وأنت امرأة» .

قالت : « إنما أستطيع ذلك لأنى امرأة ، فهؤلاء العرب شديدو المحافظة على الأعراض ، فإذا لقينى أحد منهم كان لى عونا فى الوصول إلى حيث أريد» .

فقال : « أوصيك إذا وصلت إلى بيت المقدس وكانت هند ماتزال هناك أن تقرئيها منى السلام وتخبريها أنى قادم إليها على عجل إن شاء الله» .

قال ذلك وتحول مسرعا و«عبدالله» معه ، ثم قال : « علينا بالإسراع إلى بيت المقدس» .

قال «عبدالله » : «علينا قبل الذهاب أن نحمل أمتعتنا فإنها فى معسكر أبى عبيدة» .

قال «حماد» : «لابد لنا من الانتظار ريثما يهدأ البال وتسكن الأحوال ، فنودع «أبا عبيدة» ونشكره على حسن وفادته وننصرف .. ولعله يرسل معنا من يدفع عنا خطر الطريق» ..

خرجا من المنزل ، فلقيا القسيس فودعاه وخرجا إلى الشارع ، وكان الناس قد اطمأنوا وهدأت الأحوال ... فسارا توا إلى قصر الحاكم ، فرأيا المسلمين قد دخلوه ووضعوا أيديهم على مافيه ، وأهل «توما» يحملون الأحمال ويخرجون مهرولين وفيهم النساء والرجال ، فأسفا لما انتهت إليه حال هؤلاء ، وتذكر «حماد» أنفة «توما» يوم لقيه فى ذلك القصر .

وقضيا بقية ذلك اليوم ، والناس فى هرج ما بين مهاجر ومستسلم ،

ولم يستطيعا مقابلة «أبى عبيدة» ليخاطباه فى شأن الذهاب..

وفى الغد دخلا عليه فإذا هو قد بدت عليه السعادة بعز النصر ، وكان جالسا يملى على كاتبه وهو يكتب إلى الإمام «عمر» بخبر الفتح، فتنحيا حتى انتهى من الكتاب ، ثم دخلا عليه فرحب بهما ، وخاطب «حمادا» قائلا : « إنك خدمت هذه المدينة خدمة تستوجب الثناء عليها ، لأنك كنت الواسطة فى حقن الدماء» .

فخجل «حماد» لذلك الإطراء وقال : « إننى لم أفعل شيئا أستوجب عليه ثناء .. وإن ما تم من الصلح إنما كان من رغبة الأمير فى السلام» ، وأراد «حماد» أن يذكر له عزمه على الخروج إلى «بيت المقدس» ولكنه لم ير سبيلا إلى ذلك ، فصمت ، فأدرك «عبدالله» ذلك ، فخاطب «أبا عبيدة» قائلا : « لقد أتينا يا مولاي نهنئك بالفتح الذى تم على يدك ونستأذنك فى الانصراف» ..

فقال «أبو عبيدة» : «وإلى أين تنصرفون ؟» .

قال : « إن لنا فى بيت المقدس أهلا نريد الذهاب إليهم» .

ففكر «أبو عبيدة» مدة ثم قال : « لم يحن زمن الانصراف بعد ، فالبثوا فى ضيافتنا أياما نحسن وفادتكم بعدما عانيتم معنا فى زمن الحرب، ثم تنصرفون ومعكم رجال منا حتى تبلغوا مأمنكم» .

فلم يتجرأ «عبدالله» على مراجعة «أبى عبيدة» ولبث صامتا وهو يعتزم العودة إلى الاستئذان فى فرصة أخرى ، ولكنه استأذنه فى الخروج إلى المعسكر ليطمئن علي الأمتعة .

فقال «أبو عبيدة» : « إن أمتعتكم وخيولكم فى مأمن مع أمتعتنا فى المعسكر ، ونحن خارجون إليها ، لأننا لانحب الإقامة فى القصور ، خوفا من الانغماس فى الترف» .

مهمة خطرة

وفي غد خرج الجميع إلى المعسكر ، وكان «عبدالله» يتوقع عودة

الدليل من مهمته التى سار فيها إلى «بصرى» ، لكنه لم يعد، فعلم أنه إنما رغب فى الذهاب فرارا من غائلة ذلك الحصار ، فلبثا وهما قلقان على «سلمان» و«هند» ، وحاولا مخاطبة «أبى عبيدة» مرة ثانية فى المسير إلى «بيت المقدس» ، فلم يملكا فرصة لاشتغاله بتسيير الجند لفتح سواحل الشام وغيرها من البلاد .. فصبرا ريثما تسنح الفرصة ، ومضت أيام وهما على ذلك ، حتى أصبحا ذات يوم وهما على مثل الجمر فى انتظار الخروج إلى «بيت المقدس» يلتمسان حيلة يخرجان بها ، فرأيا بعض الجند فى هرج ، فخرجا فإذا هما برجل قد دخل المعسكر وعليه غبار السفر ، فعرفا أنه رسول من الإمام «عمر» إلى «أبى عبيدة» .

وبعد أن خرج الرسول من خيمة «أبى عبيدة» جاء من يلتمس من «عبدالله » و«حماد» الذهاب إلى خيمة الأمير حالا .. فخافا أن يكون فى تلك الدعوة ما يدعو إلى تأجيل سفرهما..

فلما دخلا رأيا «أبا عبيدة» فى صدر الخيمة ، وإلى جانبه «خالد ابن الوليد» و «عمرو بن العاص» وغيرهما من الأمراء ، فحياهما «أبو عبيدة» وأمر لهما بالجلوس .. ثم قال مخاطبا «عبدالله» : «لقد أنبأنى أخى (وأشار إلى خالد) أنكما من أهل العراق ، ولم أكن أجهل ذلك، ولكنني علمت منه أنكما من أمراء العراق العارفين بأحوال تلك البلاد ، وقد شاهدنا من إخلاصكما فى خدمتنا ما دعانا إلى تكليفكما بأمر تستوجبان عليه الأجر والثواب» .

فازداد «عبدالله» خوفا من تلك الدعوة ، ولكنه تظاهر بالارتياح، وقال : «إننا في خدمة الأمير».

فقال : «لقد جاءنا رسول مولانا أمير المؤمنين الآن بدعوة إلي نصرة إخواننا في العراق، وان ننفذ جندا ممن خبروا تلك الأرض، فأريد أن تسيرا مع تلك النجدة.. وفي ذهابكما خير لكما وخدمة لجند الجهاد» .

فقال «عبدالله» : «ان أمر مولاي الأمير مطاع، ولكنني خرجت من العراق منذ أعوام، ولا أدري ما طرأ عليها من التغيير والتبديل، فأخشى ألا يكون في ذهابي فائدة لكم. وزد علي ذلك أننا مشغولو البال ببعض أهلنا في بيت المقدس» .

وكان «خالد» مصغيا لما يقول «عبدالله» وكان يتوقع ذلك الجواب منه، فقال له : «لقد سمعت من خادمك «سلمان» أنك صاحب عقار وكلمة نافذة، وقد حمينا لك مالك وأهلك ، فكيف تعتذر عن الذهاب» . قال «خالد» ذلك وعلامات الغضب تكاد تظهر علي وجهه، فخاف «عبدالله» عاقبة اعتذاره ، فابتدره قائلا: «إنني لا اعتذر عن الذهاب، فإن ذلك فرض عليّ، ولكني أود أن أتفقد الذين في بيت المقدس أيضا» .

فقال أبو عبيدة : «فليذهب ابنك «حماد» إلي «بيت المقدس» ونحن نرسل معه من يوصله إليها، وسر أنت إلي العراق، وكن واثقا أننا نحافظ علي أهلك وولدك محافظتنا علي أهلنا لأنك في ذمتنا، واعلم أن سفرك إلي العراق لايطول لأن الفتح قريب إن شاء الله» ..

فظل «عبدالله» صامتا وهلة ، لعلمه ان تردده ربما أثار غضب «خالد» لما يعلم من شدته.

أما «حماد» فشق عليه فراق «عبدالله» ، ولكنه رحب بقرب مشاهدة «هند» .

فقال «عبدالله» : «هل يأمر مولاي بتسيير ولدي هذا قبل خروجي ؟» ..

قال : «نعم سنسيره في الغد.. وأما أنت فلابد من بقائك بضعة أيام ريثما يتأهب الجند للذهاب» .

ثم خرج «عبدالله» و«حماد» إلي الخيمة وباتا تلك الليلة لاحديث لهما إلا حديث ذلك الفراق، وفكرا طويلا في الفرار، ولكنهما خافا

العاقبة ، فضلا عما قد يكون من عاقبة الفرار لو قبض عليهما. ولو كان حديثهما مع «أبي عبيدة» لهان التخلص منه لما يعلمان من تسامحه ، أما «خالد» فإنه سريع الانتقام.

وفي غد ركب «حماد» وودع «عبدالله» وتواعدا علي اللقاء في «بيت المقدس» ، وإذا اضطر «حماد» للخروج قبل مجيء «عبدالله» يترك له خبرا في كنيسة القيامة هناك. ثم سار «حماد» إلي «أبي عبيدة» فودعه، فقال «أبو عبيدة» وهو يبتسم : «سر في حراسة المولي، ونرجو أن نلتقي بك قريبا في «بيت المقدس» وقد نحتاج إلي خدمتك هناك مثل حاجتنا إليها في دمشق» فأدرك «حماد» أنه يشير إلي قرب ذهابهم لحصارها.

ثم أمر «أبو عبيدة» بعض الرجال أن يسيروا معه لحمايته أثناء الطريق، فساروا وعينا «عبدالله» تراعيانه حتي توارى..

أما حماد فلما ابتعد عن «دمشق» تذكر «هند» وحالها ، وخيل له أنها تزوجت «بثعلبة» فارتعدت فرائصه، ولكنه قال في نفسه: «إنها لو كانت تقبله لما أرسلت في طلبي إلي دمشق» ثم فكر في طول غيابه ، فخيل له أنها يئست من قدومه فاضطرت إلي مجاراة والدها وقبول «ثعلبة» ، فقضي معظم الطريق في هذه الهواجس.

خيبة المسعى

وصل «حماد» إلي بيت المقدس، فنزل في دير بالقرب من كنيسة القيامة، حتي اذا استراح قليلا خرج للبحث عن «هند» في دير القيامة نفسه، فأخذ يستطلع لعله يتنسم خبرا، فلم ير واحدا يعرف «جبلة» أو أهله، ولم يكن حديث القوم إلا الحرب وعواقبها، وكلهم خائفون مما سمعوه من سقوط «دمشق» فقال في نفسه: «لأذهبن إلي قيم ذلك الدير لعله يخبرنا بأى خبر» وكان يونانيا، فسار إليه، فقال له القيم : «ان أهل الملك «جبلة» نزلوا هنا أياما، ولكنهم سافروا منذ أسبوع» .

قال «حماد» : «هل سافروا جميعا نساء ورجالا» .

قال : «لقد كانت النساء فقط عندنا ولكن الرجال أتوا منذ أسبوع، وأقاموا هنا ساعات قليلة، ثم رحلوا إلي حيث لايعلم أحد» ..

فقال حماد : «ألم يتركوا شيئا من أمتعتهم هنا» ، قال: «تركوا مالا قيمة له من ثقيل الأحمال هبة للدير، ولم يأخذوا إلا ما خف حمله وغلا ثمنه» .

فبهت «حماد» لذلك الخبر، وقال في نفسه : «وهل ثعلبة معهم ؟» ، ثم لم ير بدا في إعاده السؤال، فقال : «لأن هؤلاء القوم يهمني أمرهم، وقد كنت في «دمشق» أقاسي عذاب الحصار، فلما انتهي الحصار أتيت لأفتش عنهم، فهل عرفت أشخاصهم جيدا؟» ..

فاهتم القيم لحديث «حماد» عن حصار دمشق، فقال له : «وهل شاهدت الحصار بنفسك ورأيت جند العرب رأي العين» .

قال حماد : «نعم ، رأيتهم واختلطت بهم وسمعت أحاديثهم» ، واضطر «حماد» أن يقص عليه الخبر مختصرا سعيا لرضاه ، فلما انقضي الحديث امتقع وجه القيم، وهو راهب طاعن في السن، فقال: هل يأتون الينا ؟» ...

قال حماد : «أظنهم يأتون اذا لم يجدد الامبراطور «هرقل» الهمة في التجنيد والتأهب ، فإن هؤلاء العرب أشداء صبورون علي القتال ، .. فأخبرني الآن عما تعرفه من أمر أهل الملك جبلة» ..

قال القيم : «أما وقد أفصحت لي عن رأيك بعد أن خبرت الأمور ، فأخبرك يا ولدي أن سقوط «دمشق» أوقع الرعب في قلوب رجالنا، فأصبح كل منهم خائفا لا يأمن علي نفسه ولا علي أهله، وكذلك «جبلة» فإنه أسكن أهله في هذا الدير، وفي عزمه أن يعقد لابنته الوحيدة علي ابن عمها.. فهل بينك وبينهم قرابة؟» .

قال حماد : «ليست بيننا قرابة، ولكن لي مع الأمير «جبلة» شغلا

هاما» ، قال ذلك وهو يتعجل بقية الخبر، ليري ماذا تم من أمر الزواج..

فقال الراهب: «ولكنني لاحظت من الفتاة نفورا شديدا من ابن عمها هذا، وكان والدها قد كلفني بإقناعها» .

فثارت الغيرة في قلب «حماد» وأصبح كله آذانا ليسمع نهاية الحديث، وقال : «وهل اقتنعت ؟» ..

قال الراهب: «كلا يا ولدي ، لأنها كانت شديدة النفور، وكنت إذا سألتها أجابتني معتذرة والدموع ملء عينيها، ووالدتها لاتلومها» ..

ولم يتم الراهب كلامه حتي تناثر الدمع من عيني «حماد» فتشاغل بإصلاح كوفيته إخفاء لعواطفه، وقال: «لقد همني أمر هذه الفتاة، وأري من الظلم أن تجبروها علي الزواج برجل لاتريده» ..

قال الراهب : «لقد صدقت يا ولدي ، ولذلك فإن العناية الإلهية حلت هذا المشكل علي أهون سبيل» .

فقال حماد : «وكيف ذلك ؟» ..

قال الراهب : «إن ابن عمها المشار إليه قتل في إحدي المواقع الأخيرة» ..

فانتابت «حماد» الدهشة ، وقال : «هل تيقنت من ذلك يامولاي .. لعل الذي قتل شخص غيره» .

قال الراهب : «بل تحققت أنه هو ، لأني سمعتهم يتحدثون بحكايته ، وكأنهم يهنئون «هند» بذلك» .

فقال حماد : «ألا تذكر اسمه ؟» ..

قال الراهب : «أذكر .. اسمه ثعلبة» .

فأيقن «حماد» بنجاته من ذلك المزاحم، ولكنه مازال في ريب من مقر «هند» ، فقال : «وماذا فعلوا بعد ذلك ؟» .

قال الراهب: «بقي أهل «جبلة» عندنا بعد ذلك أياما حتي شاع

خبر سقوط «دمشق» وانتصار المسلمين، فخرجوا خروج الهاربين من الموت، ولا أدري إلي أين».

فوقف «حماد» صامتا لايدري ماذا يعمل، فنهض للحال وودع الراهب وانصرف إلي حجرته في الدير وهو لايدري إلي أين يسير.

«سلمان»

وكان «حماد» في أثناء ذلك يفكر تارة في «هند»، وطورا في «سلمان» وآونة في «عبدالله»، وخيل له أن المسالك سدت أمامه، فضلا عما كان يعترض سبيله من أحوال الحرب، وقد أصبح أهل الشام في هرج علي إثر سقوط «دمشق» وأخذوا في المهاجرة إلي مصر أو بلاد الروم أو غيرهما.

فوصل الدير وهو لايدري انه وصل، حتي إذا كان علي مقربة من غرفته رأي عند بابها رجلا كان جالسا ثم هم مسرعا لملاقاته، وحالما وقع نظره عليه علم أنه «سلمان» فناداه باسمه، فترامي «سلمان» علي يده يقبلها ويشكر الله علي لقائه، فقال «حماد»: «أهلا بك أيها الصديق، لقد أطلت الغياب علينا.

أين كنت كل هذه المدة، وما الذي جاء بك هنا»..

قال «سلمان»: «ان لقاءنا يا سيدي لم يكن علي سبيل المصادفة، ولكنني أطلت البحث حتي علمت بمقرك، وقبل سرد حديثي الطويل أبشرك بموت ثعلبة».

قال «حماد»: «لقد سمعت بمقتل «ثعلبة» وفرار «جبلة» في وقت واحد».

قال «سلمان»: «وأي فرار؟»..

قال «حماد»: «لقد تحققت من فرار الأمير «جبلة» من بيت المقدس بأهله إلي حيث لايعلم أحد».

قال سلمان: «لا تيأس يا مولاى .. لن أترك وسيلة دون أن

أستخدمها في سبيل البحث عنه».

فقال «حماد»: «لقد نفد الصبر يا «سلمان» واحتملت كثيراً من غدر الزمان، ويخيل لي ان الله لم يكتب لي الفوز بهند مع ما تعلمه من تعاقد قلبينا»، ونظر سلمان إلي «حماد» وقال: «دع ذلك إلي يا مولاي، وتوكل علي الله.. وإذا كانت لك على «أبي عبيدة» دالة فلنذهب إليه نستطلع منه خبرا».

فقال «حماد»: «ان لي عليه دالة عظيمة، ولقد أصبح بعد ما تم علي يدي من صلح الشام شديد الثقة بي، فلا أظنني إذا استعنت به في البحث عن «جبلة» إلا فاعلا ما أريد».

قال سلمان: «إذا أذنت أن نذهب إليه غدا فعلنا».

قال حماد: «حسنا».

قال سلمان: «أرجو إذا نحن ظفرنا بجبلة هذه المرة، ورأينا منه ترددا أو سمعنا منه وعودا، ألا نضيع الوقت في الانتظار والمماطلة عبثا»..

قال حماد: «وما معني ذلك؟»

قال سلمان: «معني ذلك يا سيدي أن تأخذ «هند» من بين يديه.. أراد هو أو لم يرد».

فضحك «حماد» وكان قد قضي زمنا لا يضحك، وقال: «سننظر في ذلك يا سلمان».

وباتا وهما يعتزمان الركوب إلي دمشق في الصباح..

البطريرك يلقى كلمة

وكان ذلك اليوم من أيام الآحاد، فقال «حماد»: «هلم بنا ندخل كنيسة القيامة نتبرك بسماع الصلاة قبل ذهابنا»، فخرجا حتي أتيا الكنيسة، فرأيا جماهير الناس في صحنها ينتظرون قدوم البطريرك لإقامة الصلاة.. فوقفا بينهم، فلم يسمعا من أحاديثهم إلا ما يتوقعونه من

قدوم العرب لفتح بيت المقدس، ثم ماج الناس وتزاحموا يسابق بعضهم بعضا، فعلما أن البطريرك قادم، ولم تمض مدة حتي جاء في موكبه يتوكأ علي عكاز ، يحف به الأساقفة والقسوس ، وقد أوقدت الشموع، وفتح الناس طريقا في وسطهم مر فيها البطريرك، وهم يتبركون بلمس ردائه، حتي دخل الكنيسة ، فتبعوه حتي وقف عند الهيكل، فبدل ثيابه بما يلبسه البطاركة أثناء الصلاة، والتفت نحو الجماهير فعلموا أنه يهم بالكلام، فأصغوا إليه ، فقال بعد البركة:

«اعلموا معاشر النصرانية أن رجال الحرب الحجازين الذين سمعتم بقدومهم إلي هذه البلاد واستيلائهم علي بصري ودمشق، قد استفحل أمرهم حتي فتحوا حلب وحمص وبعلبك وقيسارية وقنسرين وأنطاكية وغيرها.. وقد بلغني في هذا الصباح أنهم قادمون إلي هذه المدينة المقدسة بجند كبير، وقد بلغكم علي ما أظن خروج مولانا الامبراطور «هرقل» من بلاد الشام إلي القسطنطينية لأحوال اقتضت ذلك، وقد فوض إلينا التصرف في أمر هذه الحرب ، ففاوضنا حاكم هذه المدينة، فرأينا من الحكمة ألا ندع لأولئك العرب سبيلا لتخريب شيء من أبنيتها المقدسة، فإن فيها كنوز النصرانية، فإذا رأينا خطرا في مقاومتهم عقدنا معهم صلحا نحفظ به الأرواح والأموال ونستبقي كرامتنا، فما علينا إلا أن نصلي إلي الله أن يؤيدنا بالنصر في الدفاع عن قبر ابنه المخلص».

فلما انتهي البطريرك من خطابه ضج الناس، أما «حماد» فلما انتهت الصلاة خرج وهو يقول لسلمان : «لم تعد هناك حاجة لذهابنا إلي «دمشق» فإننا لانلبث أن نري «أبا عبيدة» هنا، ويلوح لي أنني سأخدمه في هذه المدينة خدمة أعظم شأنا من خدمتي في دمشق، لأن أهلها علي ما يظهر أقرب إلي الصلح من الدمشقيين».

وفي صباح غد رأيا الغبار يتصاعد في الأفق ، وبانت أعلام

المسلمين، فعلم «حماد» أنهم رجال «خالد بن الوليد» .. وفي اليوم التالي جاءت فرقة أخري نزلت في جانب آخر من المدينة، ومازالوا يرون كل يوم فرقة تأتي بأعلامها وخيامهما تنزل في ناحية من المدينة، حتي صار عدد الفرق سبعا، كل واحدة منها خمسة آلاف ، فبلغت جملة الجند خمسة وثلاثين ألفا عليهم سبعة قواد في مقدمتهم خالد بن الوليد.. فلما تحقق «حماد» و«سلمان» من حصار المدينة جعلا يبحثان عن «أبي عبيدة» لعله جاء معهم، فلم يريا رايته هناك، ولكن «حمادا» كان يظن أنه لابد من حضوره فتح المدينة..

وقضيا أياما يترددان بين أسوار بيت المقدس والدير، يستطلعان الروم، فرأيا الخوف مستوليا علي الخاصة.. أما العامة فكانوا لايزالون مصرين علي الدفاع.. فرموا المسلمين بالنبال فأجابهم المسلمون بمثلها. ومضت أيام والحرب مستمرة بين الجانبين، حتي مل «حماد» الانتظار ، وصمم علي الخروج إلي الشام لملاقاة «أبي عبيدة» وسؤاله عن «جبلة» فقال له «سلمان» : «إن الطريق لايخلو من الخطر يا مولاي، وأخشي إذا خرجنا من المدينة أن يشك أهلها فينا فيوقعوا بنا سوءا .. فبقيا بضعة أيام، وهما في كل يوم يقفان في مشارف المدينة يطلان علي ما وراء الأسوار من السهول والطرق ، فرأيا يوما جيشا جديدا قادما من جهة «دمشق» عرفا أنه جند «أبي عبيدة» .. فاستبشر «حماد» وقال : «قد آن الوقت يا «سلمان» فلنسع في سبيل الخروج، فما الرأي ؟» ..

قال سلمان : «الرأي أن نحض حاكم المدينة علي مفاوضة العرب في شأن الصلح .. فلعله يأذن بخروجنا للمفاوضة» ..

ثم قال سلمان : «دع ذلك إليَّ فإني أدبره بإذن الله ، وأطلعك علي ما ننوي إجراءه».

صلح «بيت المقدس»

ورجعا إلى الدير، ولبس «سلمان» أحسن لباس عنده، وسار يلتمس

الحاكم، فقيل له إنه عند البطريرك في الكنيسة، فسار إليه ، فرأي الخدم والحاشية وقوفا أمام غرفة الاستقبال لايأذنون لأحد بالدخول ، فتقدم إلي كبيرهم وقال له: «إني قادم في مهمة هامة إلي حضرة الحاكم ، فاستأذنه في الدخول عليه» فأذن له، فدخل «سلمان» ، وسجد أمام البطريرك، وقبل يديه ثم قبل يدي الحاكم ووقف متأدبا فأذن له في الجلوس فجلس ، فقال له الحاكم : «ما غرضك؟» ...

قال سلمان: «ان غرضي يا مولاي سلامة هذه المدينة من سلاح الأعداء وصيانة قبر السيد المسيح من الإهانة والاحتقار».

قال البطريرك : «ومن أنت؟».

قال سلمان : «إني تابع لأمير من أمراء العراق كان في جملة من شهد فتح دمشق، وتوسط في صلحها بين الروم والعرب، ولولا توسطه لأهرقت الدماء وخربت تلك المدينة، وله بأمراء جند المسلمين معرفة ودالة».

فقال الحاكم : «أتريد أن نلتمس الصلح من عند أنفسنا ونحن لم نبد دفاعا بعد؟»..

فقال سلمان: «كلا يا سيدي ، إنما أنا أعرض عليكم الأمر عرضا .. ولا غرض لي فيه سوي حقن الدماء»..

فقال البطريرك: «بورك فيك يا بني .. ولكننا لا نرضي بما رضي به أهل دمشق، فإن بيت المقدس قبر سيدنا ليس تسليمها بالأمر السهل».

فقال سلمان : «أرى إذا فاوضكم هؤلاء العرب في أمر الصلح ألا ترضوا بعقده علي يد أحد منهم إجلالا لمقام هذه المدينة المقدسة وحفظا لمنزلتكم، ولكنكم تطلبون أن يتم ذلك علي يد أمير المسلمين الأكبر ، وهو سلطانهم وخليفتهم ، ومقامه في «يثرب» بالحجاز ، فاطلبوا أن يكون الصلح علي يده، فإذا رضوا به ، وأتي الخليفة بنفسه من كرسي ملكه إلي هنا كان في ذلك حفظ لكرامة هذه المدينة وامتيازها عن كل مافتح من مدن الشام قبلها»..

ففكر البطريرك قليلا، ثم قال : «أين هو مولاك؟»

قال : «هو في منزله هنا، فإذا أمرتم باستقدامه فعلت».

فأمره باستقدامه ، فذهب «سلمان» حتي أتي «حمادا» - وكان في انتظاره - فلما قص عليه مادار من الحديث نهض فلبس لباس الأمراء، وسار مع «سلمان» حتي دخل علي البطريرك والحاكم.. فلما رأياه استأنسا بطلعته وما يتجلي في وجهه من المهابة والجلال، فأذنا في جلوسه ، ثم قال البطريرك: «هل تعرف قائد جند هؤلاء العرب؟»

قال حماد : «نعم أعرفه جيدا ، ولي معه صداقة».

قال البطريرك : «هل أخبرك تابعك بما استقدمناك في شأنه؟».

قال حماد : «نعم ، وهو الأمر الذي أراه أنا أيضا، وقد شهدت حرب هؤلاء في دمشق وبصرى وغيرهما، ورأيت من ثباتهم وصبرهم وخصوصا بعد أن رسخت أقدامهم في كثير من البلدان ، وزد علي ذلك أن السبيل الذي تطلبون مفاوضتهم به يحفظ مقام هذه المدينة وكرامتها إلي الأبد ، إذ لايخفي علي حضرتكم أن أمير المسلمين المقيم في يثرب رجل عظيم جدا، وهو عندهم في أرفع منزلة بعد نبيهم، لأنه خليفته والقائم بأمره، فقدومه بنفسه علي ما ذكرت امتياز خاص، ونظرا لما لي من الصداقة لدي الأمير «أبي عبيدة» كبير أمراء هذا الجند سأحبب اليه أن يجيب طلبكم ، ولا أظنه إلا فاعلا».

فالتفت البطريرك إلي الحاكم كأنه يستشيره ، فقال الحاكم: «لا بأس بذلك، غير أني لا أرضي أن يفهم هؤلاء أننا خائفون أو أننا نعقد الصلح معهم لعجزنا عن القتال» .

فابتدره «حماد» قائلا : «لاتخف يا مولاي ، فإني إذا فاوضتهم إنما أجعل ذلك من عند نفسي ، غير أني ألتمس أن يصحبني من يخرجني من الأسوار لئلا يشتبه في أمري أحد من رجالكم».

فقال الحاكم : «لك علينا ذلك ، ونحن نطلب أن يبقي تابعك هذا هنا ريثما تعود».

قال حماد : «لابأس بذلك» .. وخرج «حماد» فركب جواده ومعه بعض أهل القصر، حتي أوصلوه إلي باب المدينة، فخرج إلي معسكر «أبي عبيدة»، فلما رآه «أبو عبيدة» استقبله باسما وقال : «لعلك جئت في مهمة أخرى، وهل جنح أهل بيت المقدس إلي السلم ؟» .

قال حماد : «نعم يا سيدي ، أظنهم يريدون الصلح ، ولكني فهمت أنهم، رفعة لمقام هذه المدينة المقدسة، يريدون أن يكون صلحها علي يد خليفتكم الإمام «عمر بن الخطاب» ألا تري أنه يقدم إليها بنفسه، وهي مدينة مقدسة تحترمها كل طوائف الناس ؟» ...

قال أبو عبيدة: «لا أظنه إلا يقبل ذلك.. وماذا بعد قبوله ؟» .

قال حماد : «اذا أكدت لي قبوله جعلت المفاوضة في ذلك رأسا بينكم وبين حاكم المدينة علي مشهد من الناس» ..

فأثني «أبو عبيدة» عليه وقال له : «لقد سعيت سعيا حسنا، بورك فيك، واذا تم الصلح وقدم أمير المؤمنين إلي هنا فسأقدمك إليه وأذكر له شهامتك» .

قال حماد : «ان ذلك شرف كبير، وأرغب إلي مولاي الأمير في سؤال أرجو ألا يثقل عليه» .

قال أبو عبيدة : «قل .. ماهو ؟» .

قال حماد : «أتعرف جبلة بن الأيهم أمير الغساسنة الذي كان يحاربكم مع الروم ؟»

قال أبو عبيدة : «نعم أعرفه ..»

قال حماد : «إن لي معه أمرا يهمني، وكنت أحسبه في بيت المقدس ، فجئت كما علمت فلم أجده ولا أحدا من أهله، وقيل لي إنهم كانوا هناك وخرجوا خروج الفارين لا يعلم أحد بمقرهم ، فهل يعلم مولاي شيئا عن هؤلاء الغساسنة ؟» .

قال أبو عبيدة : «إن الذي أعرفه من أمر هذا الأمير أنه خرج من بلاد الشام هو وأهله، وأخشي مع ذلك أن يكون قد قتل في بعض الأماكن ولم يعلم به أحد» .

فاضطرب قلب «حماد» وخاف أن يفتك الحجازيون بجبلة وأهله إذا التقوا بهم في مكان ، فوقع في حيرة.

فلحظ «أبو عبيدة» ذلك فيه ، فقال : «مالي أراك تحاذر أن تخاطبني ؟ فهل ساءك قتل جبلة ؟»

قال حماد : «نعم ، ساءني ياسيدي» .

قال أبو عبيدة : «وهل بينكما قرابة ؟»

قال حماد وقد تلجلج في الجواب: «نعم ، بيننا شبه قرابة»

قال أبو عبيدة : «وأي قرابة بينكما وأنت من لخم وهو من غسان ؟ فالظاهر أنها قرابة المصاهرة» .

فقال حماد وهو مطرق : «نعم يا مولاي» ، ثم رفع رأسه وقال : «أعترف لمولاي الأمير ان أمر «جبلة» يهمني كثيرا، ولا أخفي عنك أني خطبت ابنته، وقد قضيت بضعة أعوام في انتظار وقت الزواج ، فحالت الحروب بيني وبينه» .

فقال «أبو عبيدة» «كيف هان على ملك غسان أن يزوجك ابنته ، وأنت غريب، ولست من سلالة الملوك ؟»

فتذكر «حماد» حقيقة نسبه، ولكنه تجاهل وقال : «لقد عانينا في سبيل ذلك مشقة، ولعله السبب في تأخير الزواج إلي اليوم» .

فقال «أبو عبيدة» : « اعلم يا حماد أني نصيرك في تحقيق أمنيتك ، خاصة وأنت شهم قد رفعتك همتك إلي أعلي من مقام الملوك، وها أنذا أبث العيون للبحث عن «جبلة» وسأحمله علي ما تريد قهرا» ..

فشكره حماد ، وهم بوداعه .. علي أن يعود إلي حاكم «بيت المقدس» بنتيجة الرسالة . فقال له «أبو عبيدة» : «تمهل ريثما أشاور الأمراء في الأمر» .

فجاء «خالد» وسائر الأمراء ، وخرج «حماد» ، فعقد «أبو عبيدة» مجلسا شاور فيه أصحابه ، فلما انفض المجلس استدعي «حماد» فدخل علي «أبي عبيدة» ، ولم يكن في الخيمة غيره ، فرآه عابسا ، فقال له : «ما بال مولاي مقطب الوجه ؟»

فقال : «لقيت من الأمراء رغبة في إجراء الصلح علي يدنا استعجالا للفتح.. لأن استقدام الخليفة من المدينة يستغرق زمنا طويلا ، وقد يمتنع عن المجيء لما يحول بينه وبين ذلك من المشاغل الهامة» .

فأدرك «حماد» أن صاحب هذا الرأي «خالد بن الوليد» لما يعلم من عجلته في الفخر.. فقال : «أظن الأمير خالدا أكثر الأمراء ميلا إلي هذا» .

قال «حماد» ذلك ثم نهض فودعه، ثم خرج إلي «بيت المقدس» فلقيه «سلمان» فأنبأه بالخبر.. فسر لنجاح مهمته ، وقال له : «هلم بنا إلي الحاكم ، فسارا إليه فلما أقبلا عليه استطلعهما الخبر ، فقص «حماد» ما دار بينه وبين «أبي عبيدة» ..

فقال الحاكم : «لا نصالح أحدا غير الإمام» .

فقال البطريرك ، وكان حاضرا : «وكيف نميز بين الإمام وأحد الأمراء لو جاءنا باسمه ؟» .

فقال سلمان : «إني عالم بشخصية إمامهم.. وقد شاهدته بنفسي غير مرة في المدينة ، ويوم شهدت فتح مكة ، وكان لايزال أميرا كسائر الأمراء» ..

وفي غد صعد البطريرك والحاكم إلي أسوار المدينة، ومعهما «حماد» و«سلمان» متنكرين ، فلبثوا ينتظرون مايكون من أمر العرب، فجاء رسول علي جواد خاطبهم من أسفل السور يطلب اليهم التسليم، فقال البطريرك: «إننا نقبل الصلح إذا كان علي يد أعظم أمرائكم» .

فمضي الرسول ، وبعد هنيهة عاد ومعه فارس آخر علموا من لباسه ومظهره انه من الأمراء.. فقال الرسول : «هذا هو كبير أمرائنا» .

فنظر «حماد» فاذا هو «أبو عبيدة» بنفسه، فعلم أن رأي أمرائه غلب علي رأيه ، فجاء يطلب الصلح بنفسه، فلما رآه البطريرك استطلع رأي «حماد» في الرجل فقال: «هذا «أبو عبيدة» كبير أمراء جند الشام» .

فقال البطريرك : «أليس هو ملكهم الكبير؟» ..

قال حماد : «كلا» .

فنظر البطريرك إلي «أبي عبيدة» وقال : «إننا لانصالح أحدا غير خليفتكم المقيم في المدينة ، فاستقدموه واحقنوا الدماء» .

فعاد «أبو عبيدة» وفي الغد جاءهم «خالد» بمثل ذلك، فرفضوا مصالحته ، وأصروا علي أن يأتيهم «عمر» بنفسه، وكان الفصل شتاء ، وقد تكاثرت الأمطار والعواصف ، فامتنع علي المسلمين الثبات هناك مثل ثباتهم في دمشق الشام، لأن أهل بيت المقدس مقيمون في البيوت ، والعرب في الخيام ، علي أنهم صبروا أربعة أشهر بين حرب ونضال ومفاوضة ، والروم مصرون علي أن يكون الصلح علي يد الإمام «عمر» نفسه، فلم ير «أبو عبيدة» بدا من استقدامه ، فكتب إليه بذلك .

أما «حماد» فكان يتردد إلي معسكر «أبي عبيدة» يستطلع ما تم من أمر «جبلة» ويستحث «أبا عبيدة» علي البر بوعده، فمضت الأشهر الأربعة ولم يقف لجبلة علي خبر، فاشتد به اليأس ، ولم يكن يري تعزية إلا في لقاء «أبي عبيدة» ، ففيما هو عنده ذات يوم اذ دخل عليه رجل منبسط الوجه كأنه جاء ببشارة، فقال «أبو عبيدة» : «ما وراءك ؟» .

قال الرجل : «إن بالباب رسولا من أمير المؤمنين جاء يخبرنا بقدومه» .

قال أبو عبيده: «فليدخل» فدخل وآثار السفر بادية علي وجهه وعلي ثيابه..

فقال له أبو عبيده : «أين تركت أمير المؤمنين ؟» .

قال : «تركته راكبا من دمشق، وأسرعت لأبشركم بالخبر .

قال أبو عبيدة : «ولماذا أبطأ علينا ؟» .

قال : «إنما أبطأ لما اعترضه في طريقه من المسلمين يشكون إليه ويستفتونه في قضياهم ، وهو لا يري إلا سماع أقوالهم والإنصاف بينهم» ..

قال أبو عبيده : «هكذا يكون الأمراء ، بورك في فيك يا عمر» ، ثم بعث إلي «خالد» وسائر الأمراء فجاءوه، فأنبأهم بقدم «عمر » وقال : «فلنذهب للقائه» ، والتفت الي «حماد» وهمس في أذنه : «هلم بنا نسمع من أهل المدينة خبرا عن صاحبك «جبلة» ..

فركب الأمراء، وركب «حماد» ومعه «سلمان» وقد شغله ركوبه هذا عن اهتمامه بجبلة وخبره، وقد امتطوا خيولا فوقها سروج فضية ، مما غنموه من دمشق الشام وغيرها، إلا «أبا عبيدة» فقد كان علي ناقته وفوقه عباءة ، وساروا وقد تركوا الجند في مكانهم حول أسوار «بيت المقدس» . وكان «حماد» مشتاقا لمشاهدة «عمر» بعد أن تولي أمر المسلمين، وهو يتوقع أن يراه في موكب حافل كما تعود أن يري أو يسمع عن ملوك الروم والفرس مما يبهر النظر فكان كلما مشوا قليلا تطلع عن بعد لعله يري الغبار أو نحوه مما يتقدم المواكب ، فلم ير شيئا.

الإمام عمر بن الخطاب

وفيما هو يتطلع، رأي إبلا قادمة ، فقال في نفسه: «هذه طليعة الموكب» ، فلما اقتربت رأي في مقدمتها ناقة حمراء وقد أمسك بخطامها بدوي يمشى على قدميه. وعلي الناقة رجل أبيض الوجه يعلوه شيء من الحمرة حسن الخدين والأنف، علي رأسه عمامة وعلي كتفيه عباءة من صوف عليها بضع عشرة رقعة، بعضها من الجلد والبعض الآخر من الصوف .. يحمل بيده سوطاً عريضاً من الجلد،

فتحير «حماد» في أمر الإبل والتفت إلي «سلمان» فابتدره قائلا : «هذا هو الامام عمر يامولاى» . ثم ما لبث أن رأي «أبا عبيده» نزل عن ناقته وأسرع نحوه، وترجل «عمر» أيضا، وتعانقا، فتحقق حماد أنه الامام «عمر» فعجب لزهده .ثم ما لبث أن سمع «عمر» ينتهر بعض الأمراء، فتقدم ليسمع كلامه، فإذا هو يؤنبهم لما اتخذوه من لباس الديباج والحرير، وقال لهم : «مابالكم تمسكتم بالدنيا وغفلتم عن الآخرة ؟ ما هذه الملابس؟ انها ألبسة أهل الترف وأنتم في سبيل الجهاد» . فقال «أبو عبيده» : «إنهم يا أمير المؤمنين إنما اتخذوه كساء من خارج وتحته السلاح» ...

ثم نادي أبو عبيده حمادا فأقبل ، فقدمه إلي «عمر» وقال له: «إنه شاب من أمراء العراق كان لنا نصيرا في حصار الشام وواسطة في صلحها» ..

فرحب به «عمر» والتفت إلي «أبي عبيده» قائلاً : «لقد ذكرتني بجبلة بن الأيهم الغساني، ألم يصل إليك كتابي في شأنه؟» ..

قال : « كلا يا مولاي ، وما خبره ؟ » .

قال : «له خبر طويل سأقصه عليك فيما بعد.. هلم بنا الآن الي بيت المقدس» ، وركبوا جميعا ..

أما «حماد» فلما سمع اسم عمه «جبلة» خفق قلبه ، وتاق لسماع حديثه، ولكنه لم يجسر علي التماس ذلك، فاضطر للانتظار إلي فرصة أخرى..

ومازالوا سائرين حتي أشرفوا علي «بيت المقدس» وحولها معكسر العرب، ورأوا الأعلام عن بعد، ولما اقتربوا من الخيام سمعوا ضجيج الناس، ورأوا جماعات منهم مهرولين للقاء «عمر» فرحب «عمر» بهم وأثني علي غيرتهم وحسن جهادهم، حتي إذا وصلوا الي معسكر «أبي

عبيدة» نزل «عمر» ونزل الأمراء معه ، وتزاحم الناس للتيمن بمشاهدته وسماع كلامه. أما هو فجلس علي التراب وجلس الجميع معه، و «حماد» يعجب لزهده وتواضعه .

ثم نهض وألقي فيهم خطبة ، ثم جلس الجميع يتحدثون في أمر الفتح وما بذلوه من الجهد ، وما كان من فوزهم.. وكلهم فرحون وأمارات الفخر ظاهرة علي وجوههم .

وكان «حماد» ينتظر أن يجري حديث «جبلة» لعل «عمر» يقص خبره ، فاشتغلوا عن ذلك بأحاديث الفتح ، ثم نودي للصلاة، فخرج «حماد» وقد مل الانتظار ، فقال : «ماقولك يا «سلمان» ، ؟ هل نسأله ليقص علينا خبر جبلة ؟» .

قال سلمان : «لا حاجة بنا إلي ذلك ، إنما يكفينا أن نسأل أبا عبيدة» .

قال حماد : «حسنا .. وسار الي «أبي عبيدة» بعد الصلاة ، فلما وقع نظره علي «حماد» قال له : «غدا نسمع حديث أمير المؤمنين عن «جبلة» وأهل بيته ، أما الآن فأطلب إليك أن تسير الي حاكم هذه المدينة فتخبره بقدوم أمير المؤمنين، وقل له أن يخرج للصلح ، ومتى عدت من هذه المهمة قدمتك إلي مولانا الخليفة».

فخرج «حماد» و «سلمان» فأخبر الحاكم والبطريرك بقدوم «عمر» فخرج البطريرك علي الأسوار ، وطلب أن يري «عمر» رأي العين ...

فعاد «حماد» بالخبر، فركب «عمر» ناقته وعليه عباءته المرقعة وتقدم نحو الأسوار وأبو عبيدة إلى جانبه، وكان حماد قد عاد إلى الأسوار وأشار إلي البطريرك أنه هو الرجل ، فاستغرب ماراه من بساطة لباسه وكشرة زهده، وقارن ذلك بما انغمس فيه الروم من الترف والرخاء، وما أراد الله من خضوعهم لأولئك العرب. ثم نظر الي أعيان المدينة وكانوا وقوفا معه علي الأسوار، وقال : «إليكم يا أهل بيت

المقدس، هذا هو الرجل الذي تفتح بلادنا علي يده ، فاخرجوا إليه ، واطلبوا صلحه ، واعقدوا معه الأمان .. ففتحوا الأبواب ، وكانوا قد ضاقوا ذرعا باحتمال الحصار، وخرجوا أفواجا وفيهم الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ، وصاحوا بصوت واحد يستغيثون فلما رآهم «عمر» علي هذه الحالة تخشع لله وسجد ، وهو علي ناقته ، ثم أناخها ونزل، وقال للناس: «عودوا إلى منازلكم ، ولكم الذمة والعهد» فعادوا ولم يقفلوا الأبواب ، وعاد «عمر» الي معكسره. وفي صباح غد دخل «عمر» المدينة والناس يرحبون به ، وقد رفعوا أصواتهم بالترنيم والترتيل ، وفيهم القسوس في أيديهم المباخر، حتي بلغ قصر الحاكم قرب كنيسة القيامه، واجتمع إليه الحاكم والبطريرك وكبار أهل الدولة، وعقدوا صلحا تعهدوا فيه بأداء الجزية، وأوصي بهم الإمام «عمر» خيرا، وهدأت الأحوال وسكنت القلوب ، إلا قلب «حماد» فإنه ظل يتقلب علي جمر .

جبلة بن الأيهم

ومكث عمر فى بيت المقدس عشرة أيام ، ولم يخل يوم واحد من الوفود، من سائر أنحاء سوريا، وخصوصاً عظماء البلاد التى خضعت للمسلمين ، فإنهم كانوا فى اشتياق لرؤية الخليفة ، ففى يوم سار حماد إلى أبى عبيدة، وشكا إليه قلقه ورغبته فى سماع حكاية «جبلة» من لسان الإمام «عمر» فاستمهله إلي المساء وقال له: «إن أمير المؤمنين سيخرج من المدينة بعد صلاة العصر ليصلي العشاء مع سائر الأمراء في خيمته ، وسنقضي السهرة هناك فيقص علينا الخبر» .

وفي العصر خرج «حماد» و «سلمان» الي معسكر «أبي عبيدة» حتي إذا كانت العشاء وصلي المسلمون، سارا الي خيمة الإمام «عمر» فلقيهما الحاجب، فاستأذن لهما فدخلا وجلسا في أحد جوانب المكان، وكانت الخيمة كبيرة، وفيها زهاء خمسين رجلا، وكان

الجميع جلوسا علي الأرض تمثلا بإمامهم الخليفة، وبعد أن قرأ القراء بعض السور طلب أبو عبيدة من الإمام عمر أن يقص عليه حكايه «جبلة» ملك غسان وما كان من أمره .

فقال الإمام عمر : «ماذا تعلمون عنه أنتم؟» .

فقال أبو عبيدة : «نعلم أنه فر بأهل منزله إلي مكان لانعلمه» .

فتبسم «عمر» وقال : «إنه لم يفر ، ولكنه جاء المدينة بعد فتح دمشق يلتمس الدخول في الإسلام، فقبلت منه ذلك ، فاعتنق الإسلام ، وأقام بيننا في أهل منزله معززا مكرما، وأذنا له أن يبقي علي ما اعتاده من فاخر اللباس من الحرير ، وركوب الخيل مسرجة بالسروج الثمينة عليها سلاسل من الذهب فى أعناقها، ولكنا ما برحنا نري فيه روح الاستبداد والظلم مما يأنفه عدل الاسلام، لأن هؤلاء المتنصرة عاشروا الروم واعتنقوا ديانتهم وتخلقوا بأخلاقهم ، ولا يخفي عليكم ما في هؤلاء الروم من التفاوت بين طبقات رعاياهم ، فيأكل القوي منهم الضعيف بغير وجه حق .. فأراد جبلة أن يسير علي ذلك فأوقفناه عند حده، ومما دعانا إلي إيقافه خاصة حادثه جرت لرجل مع جبلة ، ذلك أننا خرجنا مرة للحج ، وفيما نحن نطوف في البيت ومعنا «جبلة» وجمع غفير من المسلمين، خرج رجل وتحرش بجبلة فغضب «جبلة» ، ورفع يده وضربه فهشم أنفه ، فجاءني هذا الرجل يشكو ما ألم به ، فبعثت الي «جبلة» فأتي فقلت : «ماهذا؟» ، قال : «نعم ، إني هشمت أنفه، لأنه تعمد التحرش، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف» ، فلما قال ذلك علمت أنه ينزع إلي الاستبداد ، فقلت : «اعلم ياجبلة انك مخطئ فعليك أن ترضي الرجل، أو يفعل بك مثل فعلك به» ، فعظم الأمر على جبلة وقال : «وماذا؟» قلت : «آمره بتهشيم أنفك كما فعلت» ..

فقال : «كيف ذلك ياأمير المؤمنين، وهو سوقه وأنا ملك؟» .

فقلت : «إن الإسلام جمعك وإياه، فلست أفضل منه بشيء إلا التقوى» ...

فقال : «إذن أتنصر» ! فقلت له: «إذا تنصرت ضربت عنقك.. لأنك قد أسلمت، فإن، ارتددت قتلتك» ..

فلما رأي ما صممت عليه سكت ، ثم قال لي : «سأفكر في ذلك هذه الليلة» ..

قلت : «فكر ما شئت» .. ثم انصرف ولم أعد أراه، ولا أدري مقره. وقد كتبت إليك في شأنه ، والتمست أن تبحث عنه ،فهل علمت عنه شيئا؟» .

قال أبو عبيده : «كلا يامولاي، إننا قضينا شهوراً ونحن نبحث عنه، فلم نقف له علي خبر» ..

مشورة وذكرى

وكان «حماد» يسمع حديث «عمر» وقلبه يخفق في انتظار آخر الحكاية ، فلما أتي «عمر» علي آخر كلامه انقبضت نفسه ، وهم بمخاطبة «عمر» يستطلعه رأيه في مصير «جبلة» وأهله،فامتنع لهيبة المجلس ومقام الخليفة، وما أن انفض الجمع حتي خلا «بسلمان» فقال له : «مارأيك يا سلمان؟» ..

قال : «لقد هان الأمر يا مولاي ، والرأي عندي أن نبحث عن «جبلة» بين المدينة والشام، أو لعله يختبئ في بعض الأديرة، ولا بد له في كل حال من المرور بدير بحيراء ولو متنكرا، فلنبحث عنه، لدى أهل الدير، وإلا قصدنا ناسك حوران ، فإن له معرفة وكرامة» .

فتأفف «حماد» وتذمر، ولكنه فكر في الأمر ، فرأي كلام «سلمان» معقولا ، فظل صامتا برهة، و «سلمان» ينظر إليه وقد تولاه الانقباض، وغلب عليه اليأس ، فقال له: «مابال مولاي لم يعتد بكلامي ؟ ألعلي مخطئاً فيما أقول ؟» .

قال «حماد» : لا أقول إنك مخطيء ونعم الرأي رأيك، ولكنني فكرت يا «سلمان» في «هند» كيف طال هذا الأمد ولم يصل إلي منها نبأ ، ولم أسمع عنها خبرا، مع علمها بذهابي إلي بيت المقدس بعد فتح الشام ؟» .

قال «سلمان» : «لا تلمها يا سيدي ، ألا تعلم أنها فتاة لاتستطيع المجاهرة بسرها ؟ فضلا عما كانوا فيه أثناء فرارهم من الخوف وأقاموا في المدينة غرباء ثم عادوا فارين كما رأيت ، فهل تستطيع هند أمرا؟» .

فقال «حماد» : «لا أدري ، ولكنني أراني مقيد الفكر، مغلول اليدين ، والأمير عبدالله صار بعيدا عنا، ولانعلم خبرا عنه» .

قال «سلمان» : «أما الأمير «عبدالله» فأنت تعلم أنه من الحكمة والتعقل بحيث لا نخشي عليه بأساً، وقد نال حظوة بين المسلمين، ولكن .. » وصمت ..

فقال : «حماد» : «مابالك صمت ؟ قل ما في نفسك» .

قال سلمان : «أعني يا مولاي أننا شغلنا بحروب الشام والتماس ملك غسان عن أمر أتينا هذه البلاد من أجله، ولولاه لكان مقامنا في العراق معاً للانتقام من دولة الفرس» .

فتذكر «حماد» حكاية «النذر» وحقيقة نسبه، وما له من الثأر علي الفرس، فقال: «لقد صدقت يا «سلمان» . وشغلنا بمهام تخصنا، عن وصية والدي» :

فقال سلمان : «إذن نسير إلي العراق» ...

قال «حماد» بصوت مختنق : «و هند» ؟ فنهض سلمان وضمه إلي صدره ، وقال له : «إن هند في المقام الأول يا مولاي ، ثم الثأر» .

فتنهد «حماد» وقال : لا ، بل الانتقام للملك «النعمان» قبل كل شيء » ..

فابتدره سلمان قائلا : «فقم بنا إلي «بيت المقدس» وغدا نستطلع اخبار العراق ، ثم نسير للبحث عن «جبلة» وأهله في أطراف الشام وحوران » .

فقال حماد : «ولكن ذهابنا إلي «بيت المقدس» في هذا الليل لا يخلو من المشقة ، وقد دعانا «أبو عبيدة» للمبيت عنده، فلنبت الليلة، فتحولا نحو الفسطاط ، وقبل الوصول إليه سمعا أصواتا عرفا أنها أصوات القراء يتلون القرآن والناس يصلون ، فتنحيا برهة حتي فرغوا من الصلاة ، فدخلا على «أبي عبيدة» ، فقال لهما: «أين ذهبتما وأنا أبحث عنكما منذ خروجنا من مجلس الخليفة ؟» .

فقال حماد : «لقد كنا نتحدث في شأن «جبلة» وخبره .. فقال «أبو عبيدة» : «سنبحث عنه في سواحل الشام، فإذا كان قد خرج منها إلي بلاد الروم أو مصر أو غيرها عرفنا خبره » .

فقال حماد : «وماذا تعلمون من أخبار العراق وفارس؟ .. فإن والدى لم يكتب إلي شيئا منذ سفره » ..

فقال أبو عبيده : «إن ما أتانا به مولانا أمير المؤمنين يسر كل مسلم، فإن النصر معقود لواؤه لجنود المسلمين وقد كان الإمام «عمر» علي موعد من موقعة هائلة بين المسلمين والفرس في القادسية . وكنا علي يقين بنصرة رجالنا مهما تكاثرت جنود الفرس وأفيالهم ودوابهم » .

ثم أمر بعض رجاله فأعدوا خيمة للضيفين ، فباتا تلك الليلة، وأصبحا وقد قام الإمام للخطابة والصلاة، وأذن المؤذنون وصلي المصلون، فتنحي «حماد» و «سلمان» ومشيا خارج المعسكر يتحدثان في تلك الشؤون ، فوقع نظرهما علي راكب قادم بسرعة البرق ، فقال «سلمان» : «هذا هو صاحب البريد علي ما أظن» . فوقفا، فإذا به قد وصل الي معسكر «أبي عبيدة» فأسرعا إلي الفسطاط فرأيا «أبا عبيدة» خارجا من خيمته ، ومعه الرجل القادم وهو لايزال بغباره ، وقد مشي

حتي أتوا فسطاط «عمر» فدخلوا جميعا ودخل «حماد» و «سلمان» معهم ، فرحب «عمر» بهم، وخاطب صاحب البريد قائلا : «ماوراءك ياعبد الله ؟» . فقال: «ماورائي إلا الخير» ومد يده فاستخرج من بين أثوابه صندوقا فتحه واستخراج لفافة من جلد ناولها للإمام «عمر» ففضها ودفعها، إلي بعض خاصته ، وقال : «اتل علينا ما فيها لنري ما كان من أمر المسلمين فى العراق». وكان فى اللفافة البشارة بفوز المسلمين على أهل فارس فى موقعة «القادسية» .

فقال حماد لسلمان : «ولكننا لم نعرف شيئا عن الأمير «عبدالله» ولا عن «جبلة» ، ألا تظن صاحب البريد يعلم شيئا عن ذلك ؟» .

قال سلمان : «ربما كان على علم ، فهلم بنا نستطلعه» ، وساروا يبحثان عنه ، فإذا هو قد خرج إلي خيمة بعض الجند للاغتسال والوضوء وتناول الطعام ..

فقال سلمان : «أظن صاحب البريد يحتاج إلي الراحة فلندعه وشأنه، علي أن نعود إليه في صباح غد» ..

ويأتيك بالأخبار من لاتسأله

انصرف حماد وسلمان إلي خيمة يلتمسان الراحة ريثما يتمكنان من مقابلة ساعي البريد ، واستطلاع خبر «جبلة» و «عبدالله» . وفيما هما سائران إلي الخيمة رأيا عجوزا حدباء عليها سمات الفقر وغبار السفر قادمة نحوهما تتوكأ علي عكاز، وقد لفت رأسها بخمار، فظناها من المستجديات فلم يعبأ بها ، وظلا في طريقهما حتي دخلا الخيمة وليس فيها سواهما، وما إن جلسا حتي رأيا تلك العجوز قد دخلت بلا استئذان ، فصاح بها «سلمان» : «ماذا تريدين ياخالة ؟» ..

فلم تجبه ، وظلت داخلة حتي دنت من «حماد» وحسرت اللثام عن وجهها فإذا هي خادمة «هند» التي لقيها في «دمشق» فخفق قلبه لرؤيتها، فبغت وصاح بها : «ما خبرك ؟ وأين هند؟» .

قالت : «تمهل ريثما استريح ، فأخبرك الخبر، وقد جبت البلاد وأنا

في هذا الزي أبحث عنك ، فلم أقف لك علي خبر ، وقضيت فى هذه المدينة أياما لا يخبرني أحد عن مكانك. قالت ذلك وهي تبحث عن وسادة تجلس عليها، فجلست وعينا حماد تتابعانها وقد نفد صبره في استطلاع حال «هند» . فقال لها : «أخبريني عن هند قبل كل شيء ، هل هي بخير ؟ » .

قالت : «كن مطمئنا ، إنها بخير وسلامة لا ترجو إلا لقاءك» .

فقال : «أين هي ؟» .

قالت : «لا أدري أين هي الآن ، ولكنني أعرف الخطة التي ستسير عليها، فإذا قصصت عليك الحديث من أوله هان عليك فهم الحقيقة» ..

قال : «قولي باختصار» ، فقالت : «تركتني في دمشق بجوار كنيسة مريم، فأسرعت إلي استئجار بغلة ركبتها حتي أتيت بيت المقدس . وكانت سيدتي «هند» ووالدتها وسائر أهل القصر مقيمين في دير هذه المدينة ، فأخبرتهم بسقوط دمشق ، فخافوا ولكنني طمأنت «هند» وأملتها في قرب مجيئك، فهان عليها كل عسير ، ولبثنا ننتظر ذلك اليوم . ولكن الأمر جاء بالعكس ، فإن سيدي الملك «جبلة» بعث إلينا في اليوم التالي، للسفر سرا ، ثم جاء هو وأمر أن نسير على عجل ولم يجسر أحد من أهله أن يسأله عن جهة المسير، .. فخرجنا وقد أسرت مولاتي «هند» إليّ أنها حالما تعرف المكان الذي سنقيم فيه تبعث بخبره إليك ، فسرنا أياما وليالي ، ولم نحط رحالنا إلا في المدينة حيث خليفة المسلمين وقد كنا في خوف عظيم ، ولكننا أنسنا إكراما وحسن وفادة، وبلغني أ ن سبب سلامتنا اعتناق سيدي الملك ديانة هؤلاء الفاتحين . فلما ظننا المقام استقر ، لم يبق علي سيدتي إلا أن ترسل إليك بذلك.

ولم نكد نتوسم الراحة حتي جاءنا سيدي الملك في عجلة وبغتة

كما فعل يوم خروجنا من هنا، فتأهبنا وخرجنا في ليل دامس خفنا فيه خوفا شديدا، ولكن بعض جيراننا اليهود من أهل المدينة كانوا لنا عونا في مسيرنا الي ماوراء أسوارها ، وفي غد تحققنا أننا قاصدون بلاد الشام ، فرأيت من سيدتي هند ارتياحا إلي هذه الوجهة ، على رجاء أن نقرب منك، فقضينا في طريقنا هذه مدة طال أمدها ، ونحن نسير ليلا متنكرين، ونختبيء نهارا، ولا نقيم إلا في الأديرة لأنها خير مبيت آمن، لأهل النصرانية ، وكنا نمكث في بعضها أياما وأسابيع» ، قالت ذلك وخفضت صوتها لئلا يسمعها أحد ، وجعلت تتطلع من باب الخيمة خوفا ممن يتجسس أو يسمع ، فقال لها «سلمان» : «تكلمي لا تجزعي، إذ ليس في هذا المعسكر من يظن بنا سوءا، ولكن أخفضي صوتك» ..

قالت : «وآخر مكان أقمنا فيه دير بحيراء ، والخلاصة أننا لم نصل الي دير بحيراء حتي أخذ اليأس من سيدي الملك كل مأخذ، لما ذاقه من ذل التنكر في بلاد كانت طوع إشارته لا يمر بها إلا محفوفا بالجنود والأعوان» .. وأتمت المرأة حديثها قائلة: «ففي ذات ليلة دعا مولاي الملك سيدتيَّ «سعدي» و«هند» وخلا بهما في حديث طويل .. وفي الصباح دعتني «هند» وأسرت إليّ أن أبحث عنك في «بيت المقدس» ، حتي أقف علي مكانك وأطمئنك عليها، وأخبرك أنهم ساروا إلي العراق، وسيقيمون في «دير هند» بعيدين عن الشام والبلقاء، لأنهم لا يستطيعون صبرا علي أن يروا ما خرج من أيديهم كل يوم رأي العين، وأيدي الغالبين فوقه» ، فلما سمع ذكر «دير هند» أجفل وقال: «أي دير تعنين ؟» .

قالت : «دير هند في ضواحي الحيرة» .

فنظر الي «سلمان » قائلاً : «فما هذا الدير؟» ..

فقال سلمان : «إن في الحيرة ديرين ينسبان إلي «هند» أحدهما الأصغر وهو في الحيرة والآخر في ضواحيها، أما الأول فقد سمي باسم

أختك «هند» ، بنته لما قبض كسري علي المرحوم والدك الملك النعمان في أوائل حكمه وسجنه قبل أن تولد أنت بأعوام، فنذرت شقيقتك «هند» أن تبني ديرا وتسكنه حتي تموت، فلما أطلق سبيل والدك مكثت في ذلك الدير.. وأما الدير الأكبر وهو ما يسمونه بدير هند الكبري وهو دير كبير وكان رهبانه يترددون علي منزل الأمير «عبد الله» لمداولة الرأي في شئون تتعلق بأملاك له هناك، ويؤم هذا الدير أناس من جهات العراق وغيره » .

فنظر «حماد» إلي المرأة وقال : «هل تظنين أن هند في ذلك الدير الآن ؟» .

قالت: «لا أدري هل هي لا تزال هناك، فقد أوصتني منذ بضعة أسابيع قضيتها في البحث عنك. ولكن مولاتي «سعدى» أسرت إلي بعد خروجي من بين يدي «هند» أن مولاي الملك «جبلة» إنما يريد الشخوص إلي «القسطنطينية» ليقيم بقرب إمبراطوره «هرقل» معززا مكرما، وأنه سيجعل طريقه في الفرات، ومنه برا في البلاد التي لم يصل سيف المسلمين إليها، أما سواحل الشام فإنها في أيديهم فلا يخلو المرور بها من الخطر . وقالت لي: «إنها أقنعته بأن يقيم في دير «هند» مدة ليري ما يكون من حال جند العراق. فإذا طال غيابي عنهم فإني أظنهم يقصدون «القسطنطينية» ، وذاك آخر مكان يقصدونه فافعل ما يبدو لك» ، فلما سمع «حماد» ختام الحديث انقبضت نفسه، مخافة أن يقصد العراق فيذهب سعيه هباء، وأدرك «سلمان» منه ذلك فقال له: «ألم نكن في حاجة للبحث عن سيدي الأمير «عبد الله» في العراق ؟، فمسيرنا إلي هناك يجمعنا به وبهند إن شاء الله» .

فقال حماد: «ألم تسمع ماتلي علينا اليوم من خبر موقعة القادسية، وهي بالقرب من الحيرة .. ألا تظن أن بالحيرة خطرا ؟! » .

قال «سلمان» : «إن الحيرة يا مولاي دخلت في صلح مع المسلمين

منذ أعوام، وقد شهدت صلحها بنفسي .. وزد علي ذلك ما تعلمه من المحافظة علي الأديرة عند المسلمين».

فقال «حماد» : «هل تعرف الطريق إلي الحيرة؟»

قال سلمان : «نعم» .

«هند» في «دير هند»

في ذات ليلة بعد انقضاء موقعة القادسية وسكون الناس إلى الراحة ، سمع أهل «دير هند الكبرى» قرع الأجراس، فهرول أحد خدم الدير إلى الباب، فأطل من فوقه من غرفة صغيرة فرأى ركبا على أفراس ومعهم الخدم والأمتعة ، فنزل إلى الباب ففتحه ورحب بالقادمين، وأسرع إلى قيم الدير يخبره بقدوم ركب كبير ، فدخلوا وفيهم المشاة والفرسان ، فتقدم واحد منهم وهو لايزال ملثما حتى دنا من قيم الدير ، فهمس في أذنه فأسرع ، وسار الكل وراءه إلى غرفة باتوا فيها تلك الليلة ، وأهل الدير يتحدثون فيمن عسى أن يكون هؤلاء الناس الملثمون الذين لايعرف النساء فيهم من الرجال .. ولكنهم عرفوا من زيهم أنهم من أهل الشام ، وكانوا قد سمعوا بحروب المسلمين هناك فترجح لديهم أنهم بعض كبار الغساسنة، وهم في الحقيقة «جبلة» وأهله ، فأقاموا هناك مستترين .

★★★

أما حماد وسلمان فلما عزما على السفر إلى العراق سارا لوداع «أبي عبيدة» ، فإذا هو يتأهب لوداع الإمام «عمر» وقد هم بالرجوع إلى المدينة ، فوقفا ريثما ودعه ، فامتطى «عمر» جمله ، وركب معه بعض الأمراء ، وودع الناس ، واتجه نحو المدينة. و«سلمان» و«حماد» ينظران إليه ويعجبان بما أوتيه من رفعة المنزلة مع رغبته في الزهد .

ولما توارى الإمام عاد الأمراء إلى معسكرهم وفي مقدمتهم «أبوعبيدة» ، فانتظر «حماد» و«سلمان» ريثما خلا بنفسه ، فسارا إليه

وأستأذناه في الانصراف .

فقال أبوعبيدة : «إلى أين ؟» .

فقال حماد : «إننا سائرون إلى العراق نلتقي بوالدي ، فقد طالت غيبته» ..

قال أبوعبيدة : «وهل سمعتم خبرا عن جبلة ؟» .

قال حماد : «لم نسمع خبرا بعد ، ولعلنا نعرف عنه شيئا» . قال ذلك وهو يعلم أن «أبا عبيدة» إذا علم بمكانه بعث من يقبض عليه عملا بإرادة الأمام «عمر» ، فأنكر مكانه.

فقال أبوعبيدة : «أظنكما تعثران عليه في العراق ، فقد سمعت من بعض الناس أنه سار إلى هناك ، وربما كان يقيم في «دير هند الكبرى» خارج الحيرة» ..

فلما سمع «حماد» ذلك تجلد وتجاهل وقال : «سنبحث عنه جهد الاستطاعة ، وهل تظن عليه بأسا إذا عرف مكانه ؟» .

قال أبوعبيدة : «إن أمير المؤمنين كتب إلى عماله في الشام وفلسطين والعراق كافة أن يقبضوا على الرجل حيثما وجدوه ، لأنه أسلم وارتد وخرج من المدينة فارا» .

ومال حماد إلى العجلة في المسير إلى العراق ، فأستأذن «أبا عبيدة» ، وخرج مع «سلمان» وسارا .

وادي الفرات

وبعد بضعة أيام حملا ما استطاعا حمله من المتاع ، وخرجا من «بيت المقدس» ، وفي أثناء الطريق قال حماد : «لا أظننا إذا بلغنا العراق أننا سنعود إلى هذه البلاد ، فلنأخذ أمتعتنا التي تركناها في «بصرى» وخصوصا الدرع ، فإنها كنز ثمين عندي ، وقد أحتاج إليها في دفاع أو هجوم» ، فمرا ببصرى ونزلا البيت وحملا منه ما طاب لهما من خفيف الحمل وغالي الثمن

فاصطحبا خادما أو دليلا يدلهما على الطريق ، وسارا . وبعد بضعة عشر يوما طلا على وادى الفرات من تلال مرتفعة ، فإذا هو سهول منبسطة يخترقها الفرات ، وفيها القنوات والبحيرات بينها والبساتين والمزارع . وكان وصولهم إلى هناك قبل الغروب ، فوقفا والخادم ينصب الخيمة على نية المبيت فوق ذلك التل . أما «حماد» فقد التفت إلى تلك السهولة الخصبة وما يتخللها من القرى والمدن وفيها الماشية عن بعد ، وشجر النخل كأنه جند واقف لإلقاء التحية ، فتذكر والده «النعمان» وقال فى نفسه : «هذه هى البلاد التى كان يحكمها والدى» .

أما «سلمان» فكان يساعد الخادم فى نصب الخيمة وإعداد معدات الراحة ، فلما فرغ من ذلك ، وقف «حماد» و«سلمان» ينظران معا إلى وادى الفرات .

ثم جلسا للعشاء ، وانصرفا بعده للنوم ، لأن التعب أخذ منهما مأخذا عظيما ،. وفى الصباح بكرا وركبا ، و«حماد» لايصدق أنه يشرف على الحيرة ويرى «دير هند» ولو على بعد .

فقال حماد : «ألا ترى إذا أشرفنا على الحيرة الآن أن نبيت فى الدير الليلة» ..

قال سلمان : «لا أظننا نستطيع ، والمسافة بعيدة ، فقد نبيت الليلة فى مكان على مقربة من الحيرة ، وفى غد نسير إلى الدير» .

قال حماد : «حسنا» . فباتا تلك الليلة وأصبحا و«حماد» لم ينم إلا قليلا لشدة قلقه وتشوقه ، فكان كلما تصور لقاء «هند» أختلج قلبه ، فوصلا إلى ضواحى الحيرة عند الظهيرة ، وأطلا على «دير هند» ، فلما رآه «حماد» تذكر أنه يعرفه من قبل ، ولكنه لم يدخله ، فمشيا بين الكرم وحدائق الفاكهة والزيتون ، وسلمان يدله على مايملكه الأمير «عبدالله» منها ، و«حماد» ظل يفكر فى «هند»

ولاصبر له على انتظار لقائها . ثم وصلوا إلى قناة من الماء تظللها شجرة عظيمة ، فرغب «سلمان» إلى «حماد» أن يستريحا هناك ويتناولا الغداء ويدخلا الدير فى الأصيل .

فقال حماد : «لا صبر لى على ذلك ، كيف نكون بقرب الدير ولا نسرع إليه ؟!» ..

قال سلمان : «افعل ما بدا لك» فشربا وغسلا أيديهما ووجهيهما من الغبار وهما بالمسير .

الفشل

ركب «سلمان» و«حماد» وسارا حتى انتهيا إلى باب الدير ، و«حماد» قد نفد صبره . وكان «سلمان» يعرف موضع الجرس المعلق هناك فجذب الحبل ودق الجرس ، فدق قلب «حماد» معه ، ووقفا برهة لم يفتح لهما أحد ، فأعاد «سلمان» الدق ، وبعد قليل أطل من فوق الباب راهب ، وقال مستفهما : «من أنتم ؟» ..

قال سلمان : «زوار للدير» .

قال الراهب : «من أين أنتم قادمون ؟» .

قال سلمان : «من جهات الشام» .

فقال الراهب بلهجة النفور : «لامحل للزيارة عندنا» ، وتحول إلى داخل الدير ، فناداه «سلمان» فلم يجب ، فكلمه بلسان أهل الحيرة ، فعاد الراهب وقد تذكر أنه يعرف ذلك الصوت ، فأطل ثانية من أعلى الباب ، وقال : «من أنتم ؟» .

قال سلمان : «لسنا من أهل الشام وإنما نحن عراقيون مثلكم ، افتحوا لنا» ، فتفرس الراهب فى وجه «سلمان» برهة ، ثم جذب سلسلة مشدودة بالنافذة ، ففتح الباب ، فدخل «حماد» و«سلمان» وفرساهما وراءهما .

فقال له سلمان : «أتعرف هذا الشاب ياحضرة الأب ؟» ، وأشار إلى «حماد» .

فالتفت إليه وقال : «أليس هو الأمير حماد بن الأمير عبدالله ؟» .

قال سلمان : «بلى هو ، فهل رأيت والده ؟» .

قال الراهب : «رأيته مرارا ، وهو الآن مع جند المسلمين بخير ، ولولاه لأصابنا ضنك ، وربما قتلنا ، فقد كان لنا عونا ، بورك فيه ، ومرحبا بابنه» .

ومازالوا سائرين حتى وصلوا إلى دار الضيافة ، و«حماد» ينظر يمنة ويسرة ، ولعله يرى شيئا يتنسم منه رائحة «هند» فلم ير إلا رهبانا ،ثم دخلوا دار الضيافة . وقد اشتد قلق حماد ولم يعد يستطيع صبرا .. فأدرك «سلمان» ذلك .. فابتدر الراهب بالاستفهام عما منعه من فتح الباب لهما حالا ؟» .

فقال الراهب : «نلتمس من الأمير «حماد» عذرا ، وما ذلك إلا لأننا وقعنا منذ أيام فى ورطة بسبب ضيوف نزلوا عندنا ، وكانوا قادمين من الشام» ..

فقال سلمان : «ومن هم أولئك الضيوف ؟» ..

قال الراهب : «جاءنا جماعة نزلوا فى هذا الدير شهرا ، ونحن نحسبهم من أعيان الشام ، ثم عرفنا أنهم «جبلة بن الأيهم» وامرأته وابنته وبعض خدمه» .

فلما ذكر «جبلة» وأهله خفق قلب «حماد» وخاف أن يسمع خبرا يسوؤه ، فأصاخ بسمعه ليرى ما تم لهم .. واكتفى بإصغائه للراهب.

قال الراهب : «فأقام الملك جبلة بيننا أياما على الرحب والسعة ، ونحن لا نحسبه إلامن بعض أمراء الشام . على أننا كنا نعجب لاحتجابه فى الدير واحتباسه عن العيون ، ونحن نتوسم من خيوله وخدامه أنه محب للصيد والفروسية . ولكن الأمر انكشف لنا بغتة ، فجاءنا جماعة من جند المسلمين فى أصيل أحد الأيام وفيهم الفرسان والمشاة .. وقرعوا الباب ففتحنا لهم ، دون تهيب لما نعلمه من العهود التى خصوا الأديرة والكنائس بها . فخرج الرئيس لاستقبالهم ، فقالوا :

«لا خوف عليكم ولكن عندكم عدو فر منا فى حرب الشام ، وكان قد أسلم ثم ارتد ، فلابد من القبض عليه للذهاب به إلى الأمير سعد بن مالك» . فسأله الرئيس عن ذلك العدو ، فقال : «أنه «جبلة بن الأيهم» ملك غسان» ، وكان «جبلة» قد رأى الرجال ، وعلم أنهم قادموت للقبض عليه ، فقبضوا عليه وساقوه حالا» .

فقطع «سلمان الحديث قائلا : «هل ساقوه وحده ؟» .

قال الراهب : «ساقوا معه امرأته والخدم أما ابنته «هند» فكانت قد خرجت فى صباح ذلك اليوم لزيارة «دير هند الصغرى» فى الحيرة ، على أن تقضى نهارها هناك وتعود فى المساء . فلما جاءت فى المساء أخبرناها بما كان .. فلطمت خديها ، ثم وقفت تبكي تارة وتفكر أخرى ، ثم أسرعت إلى جواد لها كان باقيا هنا ، فركبت وقد ارتدت عباءة من الحرير المزركش كأنها فارس مغوار ، واستفهمت عن الجهة التى ساروا فيها بوالدها فأشرنا إليها ، فهمزت الفرس وخرجت تنهب الأرض نهبا ، ونحن لا نعهد مثل ذلك فى البنات ، ثم لم نعد نعلم عنها شيئا» .

فما أتم الراهب الحديث ، حتى انقبضت نفس «حماد» ، وتولاه اليأس ، فلبث صامتا كأنه أصيب بصدمة ، ثم التفت إلى «سلمان» فإذا هو صامت لايفكر ، فدهش الراهب لما ألم بهما من المفاجأة ، فقال لهما : «ما بالى أرى حديث «جبلة» قد همكما إلى هذا الحد وهو غسانى ؟» .

فقال سلمان : «لم يهمنا حديثه ، ولا يهمنا أمر الغساسنة كلهم ، ولكننا نفكر فى تلك الفتاة المسكينة . فهل مضى على ذهابهم مدة طويلة ؟» .

قال الراهب : «تزيد على بضعة عشر يوما» .

قال سلمان : «وهل سمعتم عنهم شيئا بعد ذلك ؟» .

قال الراهب : «سمعنا أخبارا متضاربة ، فمن قائل أن «سعدا» أمير

جند المسلمين قتلهم حالا ، وقائل إنهم قتلوا قبل وصولهم إليه ، وقائل إنهم لايزالون أحياء» .

فازداد اضطراب قلب «حماد» وهم بالنهوض ، فأقعده «سلمان» وقال للراهب : «وماذا سمعتم عن ابنته المسكينة ؟» .

قال الراهب : «لم نسمع شيئا عنها منذ خروجها ، ولعلها اقتصت آثارهم إلى معسكر المسلمين» .

فلم يعد «حماد» يستطيع صبرا ، فنهض إلى جواده وتبعه «سلمان» .

قال حماد : «دعني يا سلمان أقتف أثر «جبلة» فقد ضاق صدرى ، وتحدثنى نفسى بسوء أصابهم جميعا . أهذه نهاية آمالى ونتيجة متاعبى ؟» وتلألأت الدموع فى عينيه ، ولكنه تجلد ، وقال : «علينا السعى يا «سلمان» وعلى الله التدبير ؟» .

قال سلمان : «لنقصد معسكر المسلمين وندخل على «سعد بن مالك» أميرهم ، فنسأله عن مولاى الأمير «عبدالله» وهو عنده من كبار المستشارين كما تعلم ، فإذا لقيناه أعاننا فى البحث عن «جبلة» وأهله .. وإذا كان جبلة لايزال حيا وسطنا الأمير «عبدالله» فى العفو عنه» .

فقال حماد : «ولكن أين «هند» ؟» .

قال سلمان : «نظنها معهم ، وهب أن والدها قتل فهى لا تقتل ، لأن المسلمين لايؤذون النساء ، فقد تكون عندهم فى أمان وخصوصا إذا كان سيدى الأمير «عبدالله» قد رآها أو عرف مقرها» ..

فقال حماد : «ألا تظنهم يتخذونها سبية ... أعوذ بالله» ، قال ذلك وهم بالجواد يركبه ، فقال «سلمان» : «تمهل يامولاى ريثما نلاقى رئيس الدير ، ونسأله عن معسكر المسلمين ، لئلا يذهب سعينا عبثا» ، قال : «حسنا» ودخلا على الرئيس ، وكان قد عرف

بقدومهما ، فرحب بهما ، وأمر لهما بمائدة ، فقال «حماد» : «لانستطيع طعاما لأننا خارجان على عجل لأمر هام لنا» ..

وأضاف قائلاً : «وأنتم تعلمون أن الأمير «عبدالله» فى معسكر المسلمين ، وفى نيتنا أن نذهب إليه ، فأين هو معسكرهم ؟» .

قال رئيس الدير : «إن المسلمين يعسكرون الآن تجاه «المدائن» فى «بهرشير» ، وهى قسم من المدائن ، فإنها فى الغرب والمدائن فى الشرق ، وبينهما دجلة . فقد نزل المسلمون وحاصروها مدة شهرين ،.. ثم احتلوها، وهم يعملون على فتح المدائن» .

فقال سلمان : «إنى أعرف «بهرشير» جيدا ، ويسهل علينا الوصول إليها ، إذ لا يحول بيننا وبينها إلا الفرات وبعض السهول» ..

فتح «المدائن»

فودعا الرئيس ، ونزلا إلى الغرفة التى وضعا فيها الأمتعة ، فلبس «حماد» درعه ورداء والده «النعمان» ووضع خاتمه بين أثوابه ، و«سلمان» ينظر إليه ، فسأله عن سبب لبسه ذلك الرداء ، فتنهد وقال : «ألسنا ذاهبين إلى المدينة التى قتل فيها والدى «النعمان؟» .

قال سلمان : «نعم» .

قال حماد : «ألسنا فى شك من بقاء «هند» حية ؟» .

قال سلمان : «الله أعلم» .

قال حماد : «ونحن نعلم أيضا أنها قد تكون حية أو ميتة ، إذ لايعرف أحد مكانها ، وقد قتل والدها لا محالة ، فإذا كانت قد لحقت به ، فلا يخلو أمرها من أحد أمرين ، إما أن تكون سبية أو قتيلة ، وكلا الأمرين موت . فهل أطمع بعد ذلك فى الحياة ، وقد آن الوقت الذى يجب علىَّ أن أنتقم فيه لوالدى، وهذه جنود المسلمين على أبواب المدائن ، فإنى محارب معهم حتى أدخل ساحة القتال بنفسي ، فأقتل «كسرى» بيدى ، فإذا قتلت فما أنا خير من «هند» ، ولا عيش لى بعدها . وإذا حييت فذلك أمر الله قال ذلك وقد استبد به

الغضب ، وتجلت في وجهه مهابة الملوك ، ومازال يلبس درعه وصليل حديدها مسموع في الخارج . فتهيب «سلمان» منظره ، ولبث صامتا لايدرى مـاذا يقـول. ثم قـال : «ألا ترى يامـولاى أن تتنكر فى زى المسلمين ، لئلا يشكوا فى أمرنا ونحن فى وسط المعركة ، فيحسبوننا من الفرس أو من عرب الحيرة أحلافهم» .

قال حماد : «لقد رأيت حسنا» ، وكان بين ثياب سلمان كثير من تلك الأثواب ، لما كان يحتاج إليه من التنكر .. فاستخرج ثوبين لبس كل منهما ثوبا ، وتعمما بعمامة أهل الحجاز .

ثم ركبا ، وأطلقا الأعنة للجوادين ، فقضيا مدة وهما لايتكلمان .

ثم عبرا الفرات ، وفى الغد أشرفـا على «المدائن» وقصورها عن بعد ، فرأيا فوقها ضبابا كثيفا يكاد يحجبها عن المنظر ، فقال «سلمان» : «أظن هذا الضباب ، غبار الحرب ، ويخيل لى أن المسلمين يهاجمون المدينة فى هذا الصباح» ، ثم وخزا الجوادين حتى وصلا «بهرشير» فاذا هى فى هرج ، والناس فيها بين فارس وماش يهرعون نحو النهر ، فسألا عن «سعد بن مالك» فقيل لهما : «إنه يخوض النهر بجيشه لفتح المدائن ، وأن المسلمين يقتفون أثره ، فبحثا عن الأمير «عبدالله» فلم يخبرهما عنه أحد ، فصعدا إلى أكمة أشرفا منها على المدائن ودجلة ، فرأيا المسلمين يقطعون النهر بجيادهم ، والرماح فى أيديهم ، وبعضهم قد بلغوا الضفة الأخرى يحملون الأعلام ، ونظر إلى «المدائن» فإذا بعض حاميتها قد خرجوا من الأسوار بأفيالهم وأفراسهم وأعلامهم يتأهبون للقاء المسلمين ، وقد علا الضجيج الذى صم الآذان ، وتصاعد الغبار حتى حجب السماء ، فهاجت عواطف «حماد» وجرى دم الملوك فى عروقه ، وثارت الحمية فى رأسه ، فنظر «سلمان» إليه فرآه قد أحمرت عيناه وهو يتفرس فى ساحة القتال كأنه يهم بالوثوب إليها. فقال له : «ما بال مولاى فى شاغل ؟» .

فنظر «حماد» إليه وقال : «أرانى يا «سلمان» راغبا فى نزول هذه الساحة ، فقد حلت ساعة الانتقام لوالدى . هؤلاء هم قتلة «النعمان

بن المنذر» قد نزلوا لقتال المسلمين ، فلا أرانى صابرا عن منازلتهم ووصية والدى صارخة ، وكأنى بوالدى ينادينى بأعلى صوته من أعماق قبره طالبا الانتقام ، وتحدثنى نفسى يا «سلمان» أن أنازل هؤلاء الفرس ، فإما أن أقتل شهيد الثأر المقدس ، وإما أن أحيا بعد النصر وأظفر بخطيبتى فيطيب لى الزواج ، عملا بوصية والدى ، فقد أوصانى ألا أقضى أمرا مثل هذا إلا بعد الانتقام له» .

وثارت عواطفه ، ولم يتمالك أن همز جواده نحو النهر فخاض ، وخاضه سلمان فى أثره ، حتى أتيا الضفة الأخرى ، فرأيا المسلمين يطاردون الفرس حتى دخلوا «المدائن» ، فدخلوا فى أثرهم ، وأوغل المسلمـون فى «المدائن» و«حمـاد» فى جملتـهم، حتى أتوا إيوان كسرى، فدخلوا حديقته. حتى وصلوا إلى باب الإيوان، فكان «حماد» أول داخل، وقد عول أن يقتل «كسرى» بيده، والإيوان قاعة كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها خمسون، وفى صدر الايوان عرش يجلس عليه كسرى، وإلى جانبى العرش مجالس الأعوان والوزراء والكهنة، وجدران القاعة وسقفها مزينة بالرسوم، فلما رأى «حماد» نفسه فى وسط القاعة ووقع نظره على ذلك العرش، أسرع نحوه وهو يحسب «كسرى» جالسا عليه، فاذا هو خال ، وليس فى المكان أحد من الفرس، لفرارهم جميعا.

ولما تحقق حماد من سقوط «المدائن» لم يعد يشغله شاغل عن التماس الأمير «عبدالله» ، فلم يره بين المهاجمين، فقلق عليه، فأوعز إلى «سلمان» أن يبحث عنه ، وكان «سلمان» أكثر قلقا عليه من «حماد» . فقال «لحماد» : «لا تبعد أنت عن هذه القاعة، فإنى ذاهب الي «سعد بن مالك» أمير هذا الجند، لعلى أسمع منه خبرا عن مولاى الأمير» .

قال : «حسنا» .

حتى عاد ، فإذا هو منقبض الوجه ، فقال له «حماد» : «ماوراءك ؟» ، قال : «لقيت بعض حاشية «سعد بن مالك» وسألتهم

عن الأمير «عبدالله» فقالوا : إنه كان معهم، ولكنه خرج من المعسكر أول أمس ولم يعد».

فقال حماد : «هل سألتهم عن جبلة؟» .

قال سلمان : «سألتهم فقالوا إن «سعدا» أمر بقتله منذ قبض عليه»..

فقال حماد : «أما علمت هل كانت هند معه عند قتله؟ وماذا جرى لها ؟»..

قال سلمان : «علمت أنها لم تكن معه، فقد قال لى مخبر إن «جبلة» سيق أسيرا ومعه امرأته فقط، وعلى كل حال لا نظننا نتبين الحقيقة إلا من سيدى الأمير عبدالله».

وتركا المدينة والمسلمون يحسبوهما من جملة جندهم، لما تنكرا به من الزى الحجازى، حتى إذا صارا خارج «المدائن» قال «حماد» : « لقد قضى الأمر يا «سلمان» وسقطت عاصمة الفرس، فها قد انفذنا وصية والدى، ولكنا مالبثنا أن سمعنا بمقتل «جبلة» ونحن فى ريب من أمر أهله، ولا نعلم مقر هند» .

فقال سلمان : «لا أظن «هند» إلا فى أحد الأديرة.. وعلى كل حال فإننا لا نستطيع أمرا قبل أن نرى الأمير عبدالله» .

قال حماد : «أخشى أن يكون قد لقى حتفه أيضا»..

قال سلمان : «لا أظن ذلك، لأنه لم يكن فى المعركة، وقد علمنا أنه كان فى المعسكر قبل الهجوم، فلعله التجأ إلى مزرعة من مزارعه خوفا من الحرب» .

قال حماد : «أتعرف له مزرعة قريبة من هذا المكان؟» .

قال سلمان : «أعرف مزرعة له على بعد بضعة أميال منا، فلنذهب إليها لعلنا نقف على خبره من بعض الفلاحين هناك» .

قال حماد : «سر أنت فى هذه المهمة، ولأعد أنا الى الحيرة أعيد البحث عن «هند» لعل أحدا من أهل الدير يخبرنى بشيء عنها، ولنضرب موعدا للقاء فى مكان نعينه..».

قال سلمان : وأرى أن نلتقى فى «دير هند الصغرى» فى الحيرة بعد ثلاثة أيام» .

أين « هند» ؟

فأطلق «حماد» لجواده العنان يلتمس الفرات، قاصدا «دير هند الكبرى» وبات فى الطريق ليلة، ونزل على الدير ، فقرع الجرس ففتحوا له وهم يحسبونه مسلما لتنكره بلباس الحجازين ، فرحبوا به، فلم يكلمهم واتجه قاصدا الرئيس وقد عرف غرفته، فاستقبله بأحسن استقبال، وبالغ فى إكرامه، فسأله عما لقيه، فقص عليه خبر «المدائن» وفتحها، فشكر الله وقال : «لقد توسمنا قرب سقوط الفرس منذ أشهر، لأنه سبحانه وتعالى لا يبقى على عبدة النار، فإن هؤلاء الفاتحين وإن لم يكونوا نصارى فهم يعبدون الله ويوحدونه، ويؤمنون بالأنبياء والرسل، ويذكرون «عيسى» و«مريم» بالخير، ففى انتصارهم نصرة للدين القويم» .

«فبادره «حماد» فقال له : «هل سمعتم شيئا عن « جبلة؟»..

قال رئيس الدير : «لم نسمع عنه شيئا، ولكننا سمعنا خبرا عن ابنته»..

قال حماد : «ماذا سمعتم عنها؟» .

قال رئيس الدير : إن بعض رهباننا ينزلون الحيرة مرتين فى الأسبوع ، يحضرون سوقها، فقالوا إنهم رأوا تلك الفتاة فى بعض طرق الحيرة، على أنهم اختلفوا فى حقيقتها، فأنكرها بعضهم، وأصر الآخرون على أنها هى بعينها.

فلما سمع «حماد» ذلك قال : «ألا يتفضل حضرة المحترم باستقدام أولئك الرهبان لعلى أتحقق الأمر بنفسى ؟» .

فاستدعاهم رئيس الدير ، وكانا راهبين ، فسألهما عن تلك الفتاة ، فقال أحدهما: «رأيناها بقرب بحيرة، ويخيل لى أنها ابنة «جبلة» ، ولكن اخى هذا ينكر على ذلك» .

فقال الآخر: «لا أظنها هى ، لأنى لم أتوسم فيها ما عهدناه من

الأنفة والعزة، فقد عرفناها هنا وفى وجهها مهابة الملوك، وفارقتنا على جواد كأنها من أمهر الفرسان، والفتاة التى شاهدناها لا أقول إنها لا تشبهها ولكنها أشبه بعامة الناس منها بالملوك أو الأمراء» .

فلما سمع «حماد» كلامهما قرر المسير إلى «الحيرة» يتفقد «هند» ، بنفسه وهم بالنهوض ، فدعاه رئيس الدير للمبيت، فاعتذر بما يدعوه إلى سرعة المسير، وودعه وخرج ، وجعل الحيرة وجهته ، ولم يكد يتوارى عن الدير حتى أشرف على «الحيرة» وقد غابت الشمس، وأخذت الكواكب فى الظهور، والتفت فإذا هو على بعد ميل وبعض الميل من المدينة، ولما اشتد الظلام بدا له عن بعد نور عرف من خفقانه أنه نار عند الشاطىء ، فقصده ، وقبل أن يصل إليه سمع صوت رجل يناديه بلغة أهل العراق: «من أنت ؟» .

فقال حماد : «غريب لا أعرف الطريق، ومن أنت؟»

فقال الرجل : «أهلا بالضيف! أهلا بالفارس!» .

ثم رأى «حماد» الرجل قادما وبيده خشبة مشتعلة يستضىء بها ، فتفرس فيه فإذا هو شيخ طاعن فى السن قد استرسلت لحيته وشاب شعره، ولكنه لا يزال فى نشاط الشباب، وبيده عصا كبيرة، فعرف «حماد» من منظره أنه راع، على أنه ما لبث ان شم رائحة الزريبة وسمع صوت الماعز، فتحقق ظنه، ولكنه لم ير حوله بناء ولا خيمة، فنزل من على جواده وسلم على الراعى الذي قال له : «ما بالى أرى لباسك حجازيا وكلامك عراقيا؟» .

فأجابه حماد : «إنى من كليهما» ، وقطع الكلام. فسكت الراعى، وتقدم إلى الفرس فقاده بعناية، وليس فى ذلك المكان غيرهما، فمشيا لا يسمعان صوتا غير أصوات الماعز ونقيق الضفادع، حتى انتهيا الى كوخ صغير من سعف النخل، وقد ربض عند بابه كلب كبير الجثة ظل رابضا هادئا ، كأنه أدرك أن النازل ضيف لا خوف منه على القطيع .

وأتاه الشيخ بفرو من جلد الماعز جلس عليه بالقرب من الكوخ ،

وذهب الشيخ بالفرس إلى عمود وراء الكوخ شده إليه، وأخذ فى نزع السرج.. وفيما هو يفعل ذلك سمعه «حماد» يتمتم ويقول أقوالا لم يفهمها .

فناداه فلم يجبه، فأعاد النداء فجاء الشيخ ، ونظر «حماد» إليه فإذا هو يبتسم.

فقال له حماد : «ماذا يضحكك أيها الشيخ ؟» ..

قال الشيخ : «إنما أضحكنى ما رأيته فى عدة هذا الجواد مما يشبه عدة فرس تعودت أن أراه كل ليلة من ليالى الأسبوع الماضى، يركبه فارس قد أعجبنى فيه ما أعجبنى فيك» .

قال حماد : «من هو ذلك الفارس ؟ وما الذى أعجبك فينا؟» .

قال الشيخ : «لقد أعجبنى فيكما التنكر، فإن ذاك كان يأتينى فى كل صباح ملثماً وعليه عباءة من الحرير، فيكلمنى بصوت النساء وعليه رداء الرجال . وأنت جئتنى بلباس الحجاز وكلام العراق، فلا أدرى هل تغيرت الأرض واختلط الناس ؟» .

فتذكر حماد هند وما سمعه من تزملها بالعباءة بعد خروجها من الدير فاستأنس بحديث الرجل، فهم باستيضاحه.. فاذا هو قد تركه وتحول نحو الزريبة.. فناداه فأجاب أنه آت على عجل.

ثم جاء الراعى وجلس بجانب كلبه، ويده على رأس الكلب يلاعبه ، وهو ينظر الى «حماد» .

فابتدره «حماد» قائلا : «حدثتنى عن الفارس المتنكر» ..

قال الشيخ : «هذا هو كل حديثى عنه ، فإنه أتاني منذ بضعة عشر يوما فأوقف جواده عند هذا الكوخ ، وسألنى الذهاب الى «دير هند» لأستفهم عن أناس قادمين من الشام، وكنت إذا نظرت إليه رأيته فارسا ملثما، فإذا تكلم خلته امرأة، ووعدته بالجواب فى المساء، فعاد فى المساء ولم أكن قد ذهبت إلي الدير، فلما سألنى أجبته : «أنى سألت أهل الدير، فقالوا إنه لم يأتهم أحد» .

ومازال يكرر زياراته ويدفع الدنانير وأنا أجيبه جوابا متشابها، حتى إذا

كان منذ بضعة أيام استحلفنى بالسيدة «مريم» أن آتيه بالخبر اليقين، فسرت إلى الدير فسألتهم ، فقالوا : «إنه لم يأتهم أحد، وهب أن أحدا من أهل الشام جاءهم فإنهم لا يقبلون زيارته. فلما أجبت الفارس هذا الجواب غضب وتمتم، وكأنى سمعته يلطم وجهه، ثم تحول عنى ولم أعد أراه منذ ذلك اليوم، فلما رأيتك وآنست المشابهة بينكما ضحكت، فلما سمع «حماد» ذلك تحقق أن السائل «هند» بعينها ، فقال للشيخ : «ألم تعلم الجهة التى سار فيها ذلك الفارس ؟» .

قال الشيخ : «لا .. وهب أنى أعلم فإنني لن أصدق» .فمد «حماد» يده واستخرج دينارين دفعهما إليه، فتناولهما الشيخ وهو يتفرس فيهما ويضحك، ثم قال : «إما إذا شئت أن أصدقك الخبر، فاعلم أن الفارس سار على جانب هذا الشاطىء قاصدا «الحيرة» .. فلما بعد عنى وصار على مقربة من المدينة رأيته قد وقف مدة، فظننته عائدا إلى، فشغلت عنه مدة، ثم التفت فلم أره» .

فاستولى القلق على «حماد» ، ولبث صامتا يفكر، ثم قال : «ومتى حدث ذلك ؟» .

قال : «حدث منذ أسبوع» .

ولما آنس الشيخ من «حماد» بذلا ، حاول المبالغة فى إكرامه، ولما مضى بعض الليل، دعاه للنوم فى الكوخ .

فقال حماد : «لا أحتاج إلى نوم» ..

فقال الشيخ : «إذا كنت تحتقر كوخى، وقد تعودت النوم على الأسرة ، فإنى أعد لك فراشا من الحرير» ، ودخل الكوخ ثم عاد وفى يده ملاءة فرشها له، فعجب «حماد» لوجود تلك الملاءة عنده، فتفرس فيها فاذا هى عباءة مزركشة، فأجفل لرؤيتها، ومد يده فتناولها ونظر إليها فى ضوء القمر فإذا هى عباءة «هند» ، وكان كثيرا ما يراها عليها إذا ركبت.. فصاح بالرجل : «من أين لك هذه العباءة؟» . فضحك الراعى ضحكة يمازجها خوف ولم يجب .

فندم «حماد» على ما أبداه من الجفاء ، وقال بهدوء : «لقد

أعجبنى لطفك وحسن ضيافتك ، وإنى لا أستطيع القيام بحق شكرك على هذا الإكرام، ألا تخبرنى ممن ابتعت هذه العباءة ؟»

فسكن روع الشيخ، وأشار إلى كلبه، وقال : «إنها من صيد هذا الكلب» .

قال حماد : «وكيف ذلك ؟»

قال الشيخ : «افتقدته ذات صباح فلم أجده، وكان قد تعود السراح فى بعض الأيام ، ثم ما لبث أن عاد وقد عض على هذا الرداء بفمه، وجاء يجره وراءه» .

فازداد قلق «حماد» وقال : «ومن أى جهة قدم به؟» ..

قال الشيخ : «من جهة الشاطىء» .

فقال حماد : «ألا تظنها العباءة التى كان ذلك الفارس ملتحفا بها ؟» ..

فتنحنح الشيخ وتشاغل عن الجواب، وحرك حاجبيه وكتفيه كأنه يقول : «لا أعلم» .

المناجاة

فتحقق «حماد» أنها عباءة «هند» ، وخشى أن يكون لوجودها هناك سبب محزن، فخفق قلبه، وتشاءم، وحدثته نفسه أن يتتبع الشاطىء لعله يقف على أثر آخر، ثم تردد مخافة أن يضل عن الطريق والوقت ليل، فحاول الانتظار إلى الصباح، ولكنه نظر الى القمر وقد طلع حتى تكبد السماء، فأنار البحيرة وشاطئها وأبنية «الحيرة» . وفى أول تلك الأبنية قصر «الخورنق» الشهير، فعول على مغافلة الراعى والمسير على الشاطىء ، فتظاهر بالقلق، وقال له : «أرانى لا أستطيع نوما الآن .. فاحتفظ بالفرس ريثما أتمشى على هذا الشاطىء برهة لعل النعاس يأتينى، واعطنى العباءة ألتحف بها فتقينى من البرد» ، فتناول «حماد» العباءة وتزمل بها وسيفه إلى جنبه، وسار الهوينى محاذيا الشاطىء.. وبعد أن مشى هنيهة وقف والتفت وراءه، فإذا بالزريبة قد توارت عنه ..

فنظر الى ما حوله فعلم أنه على مقربة من الحيرة، وبينه وبينها مزارع الكروم، وأمامه البحيرة وقد هدأ ماؤها، ونور القمر ينعكس على سطحها فيتلألأ كالزجاج، والطبيعة هادئة ساكنة لايتخلل سكونها إلا نقيق الضفادع .. فجلس على صخر هناك، وأطلق لتصوراته العنان، وتصور «هند» وعباءتها، وما الذى أوصل ذلك الكلب إليها. فاعترضه فكر اقشعر منه بدنه، وخيل له أن «هند» لما يئست من لقائه ألقت بنفسها فى ذلك الماء، فبقيت العباءة على الشاطىء حتى حملها الكلب إلى الزريبة، ولما تصور ذلك انقبضت نفسه، وهم بالعباءة يقبلها ويتنسم رائحة «هند» منها، وأخذ فى البكاء.

ثم رفع العباءة عن وجهه، ووقف بغتة والتفت نحو «الحيرة»، فإذا بيوتها ساكنة هادئة فقال: «..هؤلاء أهل الحيرة نيام لا يزعجهم طيف ولا يقلقهم خيال. هل يعلمون أن على شاطىء بحيرتهم ملكا يبكى كالطفل؟ هل يعلمون أن ابن ملكهم «النعمان» يبحث عن حبيبته فى أكنافهم؟.. هبوا أيها الراقدون، أخبروني أين «هند»؟.. أين أنت يا«هند»؟.. أين أنت؟.. أجيبيني فأخبرك أن دولة الفرس قد سقطت وانتقمت لوالدي.. تعالي نجتمع وننسى الأحزان والمتاعب، ما أحلى الحب، وما أسعد الحبيبين إذا التقيا ولو عاشا فى كوخ مثل كوخ هذا الراعى». ثم أوغل فى البكاء، وهو يقلب العباءة بين يديه ويقبلها ويشم رائحتها، حتى تعب وخارت عزيمته، فاتكأ على الصخر، وألقى رأسه على حجر، فغلب عليه التعب والنعاس، فغمضت أجفانه وهو بين اليقظة والمنام..

ثم استيقظ مذعوراً، كأنه سمع صوتاً يناديه، فنظر إلى ما حوله فلم ير أحداً، فعلم أنها أحلام.

وكان البرد قد قرصه، والتعب قد أنهكه، على أثر ما قاساه من الركوب نهاره كله، فالتف بالعباءة جيداً، ونهض ومشى على

الشاطىء، ثم رأى النجوم تتوارى رويداً رويداً، حتى لم يبق منها إلا القليل، وقد تضاءل ضوؤها، فعلم أن الفجر قريب. ثم بدا الشفق من وراء الأفق يطارد أشعة القمر. فمشى «حماد» والعمامة على رأسه، أما العباءة فجعلها على كتفيه وشدها على صدره يتقى البرد بها.. ولم تمض ساعة حتى سمع دقات الأجراس من كنائس «الحيرة» وأديرتها، فأخذ يتفرس فى الشاطىء لعله يقف على أثر آخر من آثار «هند»، ثم خشى أن ينزل أحد من أهل «الحيرة» ليغتسل أو يستقى فيراه فى تلك الحال، فهم بالرجوع.. وفيما هو يتحول سمع وقع حوافر. فرأى فارساً خارجاً من سور «الحيرة» كأنه يطلب البحيرة، ولم يقع نظره على الفرس حتى خفق قلبه، لأنه يشبه فرس «هند» ولكنه لم ير فوقه سرجاً، وقد ركبه غلام يبدو كأنه خادم.. فوقف حتى دنا الفرس منه، فتأمله فإذا هو فرس «هند» بعينه، فبغت واستبشر، وصاح بالغلام فوقف..

فلما رأى الغلام العمامة الحجازية خاف وأسرع نحوه.

فقال له حماد: «لمن هذا الفرس»؟.

قال الغلام: «هو للأمير فلان».

قال حماد: «ومتى اقتناه؟».

قال الغلام: «أول أمس».

قال حماد: «وممن اشتراه؟».

قال الغلام: «من أحد الرهبان، وقد عرضه للبيع فى سوق الأربعاء».

فقال حماد: «ومن أين للرهبان مثل هذا الفرس وهو من خيول الشام»؟..

فقال الغلام: «لقد تعودنا مشاهدة مثل هذه الخيول ياسيدى منذ قامت الحرب، فكل قتيل لم يكن له وارث وهبت أمتعته وأسلابه للأديرة تنفقها فى سبيل البر، فكم من فارس قتل وظل فرسه تائهاً، فاستولت عليه الأديرة وباعته».

فلما سمع «حماد» ذلك أدرك أن موت «هند» كان غرقاً فى تلك البحيرة، وتحول عن الغلام خشية أن يرى بكاءه، وأطلق لدموعه العنان والشمس لم تشرق بعد. أما الغلام فلم يصدق أنه نجا، فحول عنان الفرس وكان قادماً ليسقيه، فعاد ولم يسقه.

فلما خلا «حماد» بنفسه وقف عند الماء والعباءة تظلله، ونظر إلي السماء وتنهد قائلاً: «هل أطمع بعد ذلك فى البقاء؟.. لمن أحيا وقد فقدت حياتى؟ ما الذى حملك على الانتحار يا«هند»؟ أيئست من لقائى ففضلت اللحاق بى إلى دار الأبدية، وقد ظننت أنى سبقتك إليها؟ أنفترق أعواما ونحن فى جهاد وشقاء، فإذا آن اللقاء وزالت العراقيل امتنعت علينا الحياة؟»، ثم سكت ونظر نحو الشمس فإذا هى لم تشرق بعد، فقال: «وهل أنتظر شروقك لعلك تأتينى ببشارة أم أنت لا تحملين إلا البلاء والشقاء؟»، فتحول إلى صخر رآه ناتئا فوق الماء على مقربة منه، وقال: «الأولى بى أن ألقى بنفسى من فوق ذلك الصخر»، وفيما هو ذاهب شعر بجاذب فى نفسه يمسكه عن الانتحار، فاعتبر ذلك من قبيل الضعف الذى يستولى على الإنسان إذا تحقق دنو الأجل.

لقاء هائل

فلما وصل إلى الصخر صعد إليه ومشى نحو حافته، فزلت قدمه وتعثر بأذياله فوقع، وفيما هو يتحفز للنهوض حانت منه التفاتة فرأى أشباحاً خارجة من ضواحى «الحيرة» تطلب البحيرة، فقال فى نفسه: «فلأعجلن قبل وصولهم»، واستولى عليه الضعف الطبيعى، فتجلد ونظر إلى تلك الأشباح، فرآها تقترب نحو الشاطىء، فتأملها فإذا هى أشباح نسوة، إحداهن تحمل جرة والثانية تحمل سلة وأخرى تسوق بعيرا، وكلهن فى زى واحد، فاستغرب ملابسهن المتشابهة، وكلها سوداء.. وعلى رءوسهن أغطية سوداء، فهمه أمرهن، وعلم أن تلك

الألبسة لا تكون إلا فى الأديرة. فخيل له أنهن راهبات خرجن قبل الفجر للاستقاء وقطف الأثمار والبقول من مزارع الدير، ورأى حاملة الجرة تقترب نحو الشاطىء، فما دنت منه حتى كرت راجعة كأن أحداً يطاردها، فاستأنس بخطواتها لمشابهتها خطوات «هند» ولكنها أضعف منها كثيراً، فعلق ذهنه بتلك الفتاة، وود لو أنه يراها لحظة أخرى، فظل يتبعها بنظره حتى رآها وقفت الى رجل، فخاطبته وأشارت إلى «حماد»، فاشتغل باله، ثم رآهما آتيين معا، الفتاة بجرتها والرجل بفأسه.

فلبث ينتظر وصولهما، فتقدم الرجل أولاً وحيا «حمادا» وتلطف فى السلام عليه، و«حماد» ينظر إلى الفتاة وهى منصرفة نحو الشاطىء لتملأ جرتها، فقال الرجل «لحماد»: «هل تأذن لى فى سؤال»؟. قال «حماد»: «قل». قال الرجل: «من أين اشتريت هذه العباءة؟».

قال حماد: «وما يعنيك من أمرها؟».

قال الرجل: «لأنها مسروقة من صاحبها، فإذا أخبرتنا بمن باعك إياها طالبنا بها».

قال حماد: «وما أدراك أن هذه هى بعينها؟ إن العباءات قد تتشابه».

قال الرجل: «إن صاحبها رآها بعينه وعرفها، وله فيها علامات»..

قال حماد: «ومن هو صاحبها؟».

قال الرجل: «الفتاة التى رأيتها الآن، فإنها حالما رأتك عادت الىّ بالخبر.. وقد قضينا ثلاثة أيام ونحن نبحث عنها»..

فلما سمع ذلك الكلام ظن نفسه فى حلم.. فمسح عينيه، والتفت إلى ما حوله، فتحقق أنه فى يقظة، فنظر إلى حاملة الجرة فرآها قد ملأت جرتها وعادت إلى رفيقاتها، فجعل يتأمل خطواتها فإذا هى خطوات «هند» ولكن الجسم نحيل. فقال للرجل: «ما بال صاحب العباءة لا يطالب بها بنفسه»؟.

قال الرجل: «لأن صاحبتها من راهبات «دير هند الصغرى» ولا يؤذن لهن فى مخاطبة الرجال.. وأما أنا فمن خدم الدير»..

فقال «حماد» وقلبه يكاد يطير من الفرح، وهو يتجلد: «وهل لصاحبة هذه العباءة وقت طويل فى سلك الرهبنة» ؟..

قال الرجل: «لا تزال حديثة العهد، فقد مضى عليها بضعة أشهر تحت الاختبار، ولذلك فقد وهبت الدير كل ما كان معها من الثياب والحلى والدواب» .. فأيقن «حماد» أنها «هند»، ولولا عمامته ولباسه الحجازى لعرفته لأول نظرة، وهى لولا ثوبها الأسود ونحولها لعرفها. فلما أيقن أنها هى بنفسها ارتعدت فرائصه ، وحدثته نفسه أن يسرع إلى «هند» فيطلعها على حقيقته، فخاف عليها من المفاجأة مع ما آنسه من ضعفها، فصبر نفسه. وخاف كذلك أن تكون أصبحت راهبة فلا يجد إليها من سبيل، فقال للرجل: «وهل نذرت نفسها كى تكون راهبة ؟» .

قال الرجل: «لا ، لاتنذر ذلك قبل أن تقضى مدة الاختيار» .

فاطمأن باله، ونظر فإذا بصاحبة الجرة قد وضعت جرتها على الأرض، وجلست على حجرة منفردة تنتظر رفيقاتها ليرجعن إلى الدير معاً.

فقال «حماد» للرجل: «اذهب إلى صاحبة العباءة وقل لها إنى لا أعطى العباءة إلا إذا سلمتها لها بنفسها» ..

قال الرجل: «قلت لك يامولاى إنها لا تستطيع ذلك» .

قال «حماد» : «إليك هذه العباءة أو القميص» وخلع عباءة «النعمان» عنه، وقال: «ادفعه إليها بدلاً من عباءتها» .

فتناول البرد وتأمله، فإذا هو أثمن من العباءة كثيراً، فأسرع إلى الفتاة، وهى لا تزال جالسة وحدها، فرفع العباءة إليها، وقال: «لم يعطنى العباءة، ولكنه دفع الىَّ بهذه» . فلما رأته صاحت للحال:

«حماد.. حماد» .. وتركت الجرة وأسرعت نحوه، وكان هو يراقبها ليرى ما يبدو منها، فلما رآها نهضت وأسرعت نحوه ، لم يبق عنده ريب فى شأنها، فأسرع لملاقاتها، وقد نزع العمامة عن رأسه. فلما التقيا وقعت «هند» وقد أغمى عليها، واستلقت إلي جانب «حماد» فأنهضها، وكان خادم الدير قد رآها تسرع نحو «حماد» ، فلما أغمى عليها أسرع بالماء ورشها، فأفاقت وهى تقول: « .. حماد..حماد.. حماد» ، وهو يقول: «هند.. هند.. حبيبتى هند.. آأنت حية وأنا أحسبك غريقة فى هذا الماء؟ ولو تأخر قدومك لحظة أخرى لذهب «حماد» طعاماً للأسماك» .

قالت: «حماك الله ياحبيبى» ، ثم غلب عليها الحياء، فغطت رأسها بالنقاب الأسود، وجلست متأدبة وقد امتقع وجهها وتولاها الهزال، فقال لها: «أين والدك ياهند» ؟ قالت: «أما سمعتم خبره؟ إنهم قتلوه، وأظنهم قتلوا والدتى. آه من تقلبات الأيام» ! وأوغلت فى البكاء.

قال: «هل تحققت من مقتله ؟» .

قالت: «لم أره، ولكننى سمعت به، ولولا ذلك لرأيتنى معه حيثما كان، لأنى لما قبضوا عليه وعلى والدتى امتطيت جوادى وتعقبت أثرهما، فوصلت إلى «الحيرة» فبت فى هذا الدير، وقد كنت أتردد اليه قبلا، فأشارت الى الرئيسة أن أبقى عندها، وأبعث من يستطلع الخبر.. فعاد المخبرون وقد أكدوا مقتلهما، فلم يبق لى نصير إلا حبيبى «حماد» ، ومن يخبرنى بقدومه؟ فإن الخادمة التى كنت أرسلتها للبحث عنك فى «بيت المقدس» لم تعد بعد، فاستخدمت راعيا بالقرب من هذه المدينة كنت أتردد اليه متنكرة ليسأل عن قدومك الى الدير، فقطع أملى من دخولك فيه، لأن أهله لا يقبلون فيه واحداً من الشام، فضقت ذرعاً واستولى علىَّ اليأس، ولم يبق لى فى الدنيا مطمع بعد فقد والدى وضياع حبيبى، وزوال عز الملك، وخسارة الأموال والعقار.

ولا أنكر عليك أنى هممت بالانتحار غير مرة، ولكن قلبى لم يطاوعني، لأنى لم أيأس من لقائك بعد. فلم أجد وسيلة غير الترهب فى دير أعرف رئيسته وبعض راهباته، فطلبت ذلك فقبلونى مبتدئة تحت الترهب».

فوهبتهم كل ما لى من الثياب والفرس، ولم أحتفظ بشيء غير الأساور وهى رمز المحبة بيننا، فإنها مخبأة بين أثوابى، وكنت قد أضعت عباءتى هذه فى أثناء رجوعى المرة الأخيرة من عند الراعى، لفرط قلقى، فوقعت العباءة عنى ولم أتنبه، فبحثت عنها فى اليوم التالى فلم أجدها، وهو اليوم الذى طلبت فيه الانضمام إلي الرهبنة، فأخبرتهم أنى فقدت هذه العباءة، فإذا عثروا عليها كانت حلالاً للدير.. وهذا هو اليوم الثالث لدخولى.

دير هند الصغرى

وكان الخادم واقفاً وقد ذهل لما رآه، فتقدم من «هند» فأومأ اليها أن عملها هذا مخالف لشروط الرهبنة، فقالت: «دعنا نذهب الى الرئيسة»، ونهضت، ونهض «حماد» ومشيا لمقابلة الرئيسة، وفيما هو في الطريق سألته عن سبب تنكره وما مر به، فحكي لها حكايته باختصار، حتى أتى إلى حديث «المدائن» والبحث عن والدها، فلما بلغ هذا المبلغ تنهدت «هند» وقالت: «آه ياحبيبى! إنى سعيدة بلقياك.. ولكن سعادتى لم تكتمل لما قاسيته من فقد والدى»..

فقال لها: «إننا لم نتحقق من مقتلهما، وقد كلفت «سلمان» بالبحث عنهما، وموعدنا اللقاء فى «دير هند» هذا فى غد، وهو اليوم الثالث لافتراقنا، وقد اتفقنا على أن من عرف خيراً أطلع الآخر عليه.. لقد فزت بحبيبتى، فعسى أن يفوز هو بمن يبحث عنهم والأمير «عبدالله» معهم»..

وكانا ماشيين فى وسط المدينة لايهمهما استغراب الناس لمسيرهما

معاً، فلما وصلا إلى الدير أسرع الخادم إلى الرئيسة فأخبرها بما شاهده من جرأة ذلك الحجازى على الراهبة المبتدئة. فأطلت الرئيسة من باب الدير فرأت «هند» و«حماد» قادمين.. وكان «حماد» قد نزع عمامته، فعرفت من ملامح وجهه أنه عراقى، فأرادت استطلاع السر، فدخلت بهما إلى غرفة منفردة، أما «حماد» فقبل يد الرئيسة، فعرفت أنه مسيحى، فسألته عن أمره.

فقال: «إذا أذنت فإنى أخبرك بأن هذه الفتاة خطيبتى منذ أعوام، وقضت حروب الشام بافتراقنا، لا يعلم أحد منا بمكان الآخر، حتى أذن الله باجتماعنا على يديك».

وتأملت الرئيسة فى وجه «حماد» وهو يكلمها، فآنست فى وجهه هيبة وجلالاً..

فقالت: «ألست عراقياً؟».

قال: «نعم، من بنى لخم».

قالت: «ويخيل لى أن «هند» شامية من غسان».

قال: «نعم» فقالت: «وكيف اجتمعتما» ؟

قال: « كذلك قدر الله».

أما «هند» فتذكرت أول معرفتها «حماد» وتذكرت والديها ويأسها من بقائهما على قيد الحياة، فترقرقت الدموع فى عينيها..

فلحظت الرئيسة عليها ذلك، فقالت لها: «ما بالك تبكين يابنتى ؟»، وكان «حماد» قد أدرك سبب بكائها، فقال: «أظنها تبكى لضياع بعض أقاربها فى أثناء حرب الشام»، فجعلت تخفف عنها وتعزيها. وتذكر «حماد» الأمير «عبدالله» و«سلمان» فصبر نفسه ليرى ما يأتى به الغد، وقال للرئيسة: «هل ترين ما يمنع خروج «هند» من سلك الرهبنة ؟».

قالت: «لا أرى مانعاً، لأنها لم تنذر العفة بعد».

قال: «فلتبق إذن يوماً آخر في ضيافتك، لأنني على موعد مع خادمي باللقاء هنا غدا، وقد ذهب للتفتيش عن ضائع لنا، فاحتفظي بها ريثما أعود، فإني ذاهب إلى راع في ضاحية الحيرة تركت فرسي عنده البارحة».

ثم نهض فلبس العمامة لئلا ينكره الراعي، وترك العباءة عند «هند» وهم بالخروج، فأمسكته قائلة: «لا تذهب، فإني لن أتركك لحظة بعد هذا اللقاء، فقد كفاني ما قاسيته، ولن يفرق بيني وبينك إلا الموت».

قال: «والفرس؟».

قالت: «دعنا من الأفراس، أو أرسل من يأتي به.. فما أنا راضية بذهابك، ولا نخرج من هذا الدير إلا معاً، إما إلى الموت وإما إلى الحياة»..

فعذرها والتفت إلى الرئيسة فطلب إليها أن تنفذ رسولاً من قبلها يحضر الفرس.. فبعثت واحداً يعرفه الراعي ويثق به، وأطلعه «حماد» على علامة يذكرها له.. وبعث معه بدينارين يعطيهما له، ولبث ينتظر عودة الرسول..

أما الرئيسة فقالت «لحماد»: «لا يخفي عليك يا سيدي أننا في دير راهبات لا يؤذن للرجال بدخوله إلا إذا نزلوا في دار الضيافة، وأما اجتماعهم بالراهبات فمحظور، فاذا رأتك الراهبات مع «هند» وهن لا يعرفن علاقتكما، أسأن بك الظن، فهل تتفضل فتنزل في دار الضيافة ريثما يأتي الغد».

قال: «أفعل ما تأمرين».. وودع «هند» ثم نزل بصحبة الخادم إلي دار الضيافة، فمر بمربط الخيول، فرأي أفراسا شاهد بينها فرسا يشبه فرس «سلمان» فدخل الدار فلقي «سلمان»، فاستبشرا معا، فقال «سلمان»: «هل ظفر سيدي بهند؟»..

قال حماد: «نعم، ولكنها راهبة في هذا الدير».

قال سلمان: «وهل نذرت العفة؟». فضحك «حماد» وقال: «لا، وأنت هل ظفرت بالأمير عبد الله؟»

قال سلمان: «ظفرت به وبجبلة وامرأته»، قال «حماد»: «أين هم؟»..

قال سلمان: «سيصلون إلينا الليلة أو غدا، وسيأتون متنكرين، لأنهم كانوا مختبئين عند سيدي الأمير «عبد الله» ولولاه لكان حموك «جبلة» في عالم الأموات، ولكن الأمير «عبد الله» حالما علم بالقبض عليه استرضي الذين أمسكوه، وأظهر للناس أنه قتل، وخبأه في منزله بتلك المزرعة ريثما يتمكن من العثور علي «هند» أو الاجتماع بك».

فانشرح صدر «حماد» أيما انشراح، وحمد الله علي انقضاء الأزمة بالتي هـي أحسن، ولم يملك صبرا عن تبشير «هند» ببقاء والدها حيا..

وهم بالرجوع الي الدير، فرأي «هند» واقفة في الشرفة تطل علي دار الضيافة، لأنها أصبحت لا يطمئن بالها علي «حماد» إلا إذا كان أمامها، فلما رأته عائدا أومأت إليه، فنظر إليها وضحك، فضحكت هى وقد أشرق وجهها ونسيت كل متاعبها، وقالت: «ماوراءك؟».

قال همسا: «أن والدك ووالدتك قادمان إلينا غدا».

فبرقت أسرتها وأسرعت لملاقاته عند الباب، ولم تعبأ بقوانين الدير. فلما لقيته مدت يدها إليه وصافحته وضغط كل منهما على يد الآخر، فقالت «هند»: «هل أنت علي يقين من قدوم والدي؟».

قال: «هذا «سلمان» قد جاء بالخبر اليقين، ولكنهما قادمان ومعهما الأمير «عبد الله» متنكرين».

قالت: «وسأخبرك خبرا جديدا حدث ساعة خروجك من غرفة الرئيسة»..

فقالت: «إن خادمتنا الأمينة التي كانت تسعي لاجتماعنا، ولولاها

ما عرفت ما تم لنا، قد وصلت إلي الدير الآن بعد أن قضت أياما في البحث والتفتيش، ولم تكن تعلم بوجودي هنا، ولكنها جاءت تتنسم الأخبار من الراهبات، فلقيتني، وسررت بها لأن لها فضلا علينا».

قال: «لقد ذكرتني بفضل «سلمان» الشهم الغيور، فلا أدري بماذا أكافئه علي مروءته وحسن صنيعه» . ثم قال : «اذهبي الآن إلي الرئيسة فودعيها، علي أن نفارقها غداً بعد وصول والديك والأمير «عبد الله» ، واحذري أن تذكري اسم أحد منهم».

قالت : «لا تخف من ذلك».

وتحولت، وتحول هو الي دار الضيافة، ومكث هنـاك إلي صباح الغد ..

زواج سعيد

استحسن «حماد» الخروج للقاء القادمين في الطريق، فخرج و «سلمان» معه علي الخيول، و«هند» لا تعلم، وقطعا مسافة حتي وصلا إلي عين مـاء لابد للقـادم من «المدائن» إلي «الحيـرة» من الوقوف عندها، ولم تمض برهة حتي رأيا «هند» وخادمتها قادمتين مسرعتين علي الأقدام، و«هند» بثوبها الأسود الجديد، فبهتا وصاح «حماد» : «ما الذي أتي بك يا هند؟» ..

قالت : «سامحك الله، ألم أقل لك إني لم أعد أستطيع الفراق عنك لحظة، مخافة أن نعود إلي ما كنا عليه من الفراق؟» ..

فشكرها، وجلسوا، ولم يستتب بهم الجلوس حتي رأوا الغبار يتصاعد من جهة الفرات، فتقدم «سلمان» ليتعرف القادمين، فعاد ضاحكا مستبشراً، فنهضوا جميعاً وتهيأوا للاستقبال، وانطلق «سلمان» ليخبر الركب أن «حمادا» و «هند» ينتظرانهم هنا. وقبل وصولهم إلي العين نزلوا جميعا من فوق جيادهم جميعاً، وهم جبلة مسرعاً إلي «حماد» فضمه إلي صدره، وجعل يقبله والدموع تتساقط من عينيه، وأسرعت «سعدي» إلي «هند» وجعلت تقبلها وتبكي، وقبلت سعدي حمادا، وأما عبد الله فظل واقفاً يتأمل ذلك المنظر المؤثر.

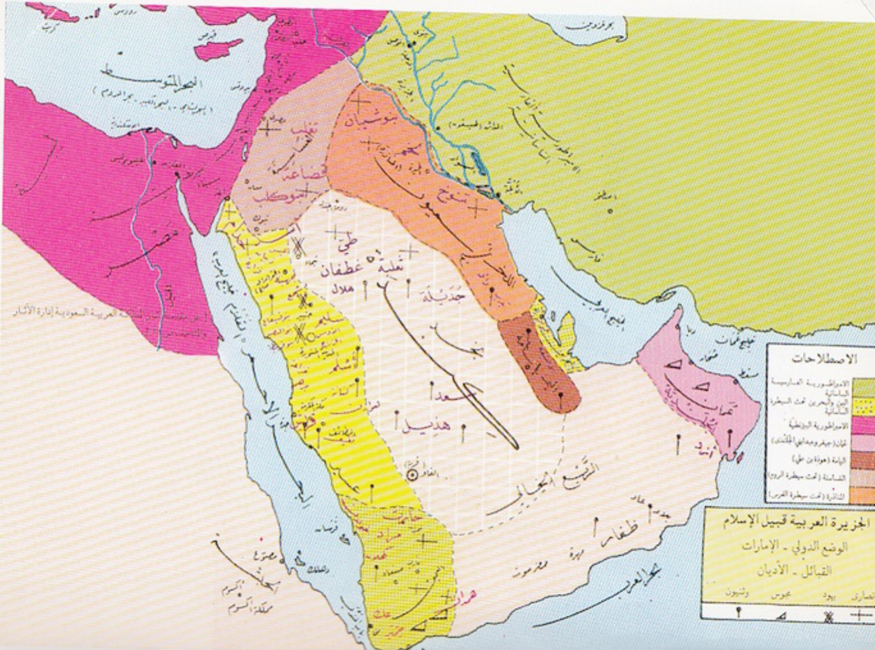
فلما انتهت «سعدي» من تقبيل «حماد» تقدم اليه وضمه إلي صدره، وجعل يقبله ويبكي بكاء مرا .. ولم يستطع أحد إبعاده عنه، حتي خافوا عليهما، وهم لا يعلمون سبب ذلك. وبعد برهة قال : «لا تلوموني علي ما رأيتم من شدة تعلقي «بحماد»، وإن ما ترونه من دموعي إنما هي دموع الفرح، فإن «حمادا» ملكى وولدي وصديقي وفخري وسندي، ومما زادني تعلقا به أنه انتقم لوالده، وشهد سقوط دولة الفرس، ومحا العار عن «لخم» ورفع ثقلا عن عاتقي حملته منذ نيف وعشرين سنة» ..

ثم تقدم «عبد الله» إلي «هند» فقبلها، والجميع يبكون بكاء الفرح، و«سلمان» ينظر إليهم وقلبه يكاد يطير فرحا، فلما سكت الجميع وهدأ روعهم نهض «جبلة» والدموع لا تزال في عينيه، وقال : «أنا لا أستطيع أن أصف خجلي من ولدي «حماد» لما سببته له من الشقاء، وما بذله هو ورفيقه أو قل والده الأمير «عبد الله» من الجهد في سبيل إنقاذنا من الموت» .

ثم نهض «عبد الله» وقال: «اعلموا أيها السادة أننا فى خطر عظيم الآن، ولم يعد يحلو لنا المقام في هذه البلاد، لأننا أعداء الفرس بالطبع، وأعداء المسلمين بالفعل، لما ارتكبناه من مخالفة أوامر أميرهم، فلا شك أنهم سيبحثون عنا، ويبذلون كل سعي في القبض علينا» ..

فقال سلمان : «لقد نطقت بالصواب، وأزيد علي ذلك أننا لا نبرح «الحيرة » قبل أن نعقد للعروسين، ثم نذهب حيثما تشاءون».

فقال جبلة: «هذا هو الرأي الصواب وإذا استحسنتم فلتكن وجهتنا «القسطنطينية» دار الأمبراطور «هرقل» نقضي بقيه العمر هناك، إذ لم يبق لنا مقام في الشام ولا العراق» ، قالوا : «حسنا» ونهضوا الي كنيسة بقرب الدير عقدوا فيها للعروسين وبعد الإكليل ركب الجميع وساروا متنكرين نحو «القسطنطينية» فبلغوها بعد بضعة عشر يوما، وأقاموا فيها حتي قضي الله بما شاء ..



الجزيرة العربية قبيل الإسلام
الوضع الدولي - الإمارات
القبائل - الأديان
نصارى
يهود
مجوس
وثنيون
الاصطلاحات
الامبراطورية الفارسية الساسانية
اليمن والبحرين تحت السيطرة الساسانية
الامبراطورية البيزنطية
عمان (جيفر وعبد ابني الجلندي)
اليمامة (هوذة بن علي)
الغساسنة (تحت سيطرة الروم)
المناذرة (تحت سيطرة الفرس)
البحر المتوسط
بنو شيبان
تنوخ
تغلب
قضاعة
بنو كلب
طي
غطفان
ثعلبة
هلال
جديلة
سعد
هذيل
الربع الخالي
ظفار
مهرة
حضرموت
بحر العرب
خليج عمان
خليج العرب
عمان
أزد
همدان
عك
حمير
الأشعر
مصر
مملكة أكسوم

هذه الطبعة من سلسلة روايات الهلال للأولاد والبنات
تصدرها دار الهلال
بالاشتراك مع المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة